نحو وعى حضارى جديد (١)

السلامة البيئية في إسلام البشرية

الحضارى

يوسف يونس نوفل

الناشر
مكتبة الإيمان
المنصورة ت : ٢٥٧٨٨٢
أمام جامعة الأزهر

الناشر
مكتبة الإيمان
المنصورة ت : ٣٥٧٨٨٢
أمام جامعة الأزهر

هذا الكتاب

دعوة عالمية تكسر حاجز الزمان والمكان والأفكار البالية لدورة زمنية جديدة وصلت فيها البشرية كما يقولون إلى مرحلة « القرية الكونية » فكان حتما أن يكون لهذه القرية رؤية فكرية تتسم مع هذه الطفرة المدنية وأساليبها العملية التى تعتمد على الانطلاقات التقنية ، والتى كان لها انعكاساتها على كل صور الحياة البشرية والمادية وجعلت هذه القرية تعيش مناخا مأساويا يوحى بالفوضى والخراب والدمار أوصل البقر إلى مرحلة الجنون ، والتفاح إلى السرطان ، والبشر– إلى عبادة الشيطان ... ومن هنا كان حتما أن يكون هناك صدى لهذا المناخ وهذه الصرخة ... ليس كما كتب الكتاب أن البيئة (ماء ، هواء ، غذاء) ولكن البيئة فى شتى مظاهرها ، ومجمل صورها سيمفونية عالمية تعزف بروح الوحدانية سواء كان ذلك بشرا أو حجرا ... نباتًا أو حيوانًا ... برقا أو رعدًا ... الكل يسبح ... والكل له حرمته ورسالته ... والاعتداء على هذه الرسالة بأى شكل من الأشكال هو تلوث ... فكان هذا الكتاب دعوة لتحريك مشاعرنا وأحاسيسنا إلى هذا النزيف البيئى وفيروسه العالمى ؛ لاستئصال أصل المرض ، والوصول بالجسد الكونى إلى السلام البيئى ، ولكن أن تكون المفاجأة الكبرى هى الرجوع إلى منظومتنا القرآنية وسنتنا النبوية !! وأن يكونا هما طوق النجاة وسفينة نوح إذا أرادت قريتنا الكونية أن تصل إلى مرفأ السلامة البيئية ... فهل تستطيع أن تركب القرية الكونية هذه السفينة أم لا ؟ ! !

- ب -

إهداء

الزوجة الصالحة حجر الزاوية فى أساس البناء الاجتماعى ودليل سلامته ، وعليه يقام البنيان وترتفع مقوماته ... إلى زوجتى الفاضلة (أم ميرهان) حفظها الله داعيا الله العلى القدير أن تعيش فى رحابة عالم هذا اللقب النبوى الشريف وظلاله الوارفة وأمله المنشود : فما أجمل هذا اللقب وعطاياه فى الدنيا ومزرعتها .... والآخرة ونعيمها ...

اللهم آمين

زوجك

يوسف

- ج -

الافتتاحية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١).

قال رسول الله ﷺ :

((إن قامت الساعة وفى أيد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها)) .

(رواه الإمام أحمد ٣ / ١٩١)

((ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمته إلا كان له به صدقة)) .

(صحيح البخارى)

((نزل نبى من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة فأخرج متاعه من تحتها ثم أمر ببيتها فأحرق بالنار فأوحى الله إليه فهلا بنملة واحدة)) .

(رواه البخارى)

---

(١) الروم :٤١ .

- د -

استدراك

لكى يتوافر لهذا البحث خاصية الجانب العلمى بمنهجيته المتعارف عليها، فقامت الدراسة بعرض الآراء من المخزون التاريخى ، والجغرافى ، وعلم الإنسان وتاريخ العلم ، إلا أنه كانت المظلة الكبرى هى خيمة الإسلام وفكره (القرآن الكريم - السنة النبوية المشرفة - تطور تراث المدارس الإسلامية الفكرية) .

وفى كل هذا وذاك كانت أكثر الإسقاطات على أرض الكنانة ، حماها الله - مصر - وإن كانت الدراسة أغفلت ذكر المراجع فى ذيول الصفحات، فقد قمت برد الرئيسى منها فى نهاية البحث ...... وأشفعت الدراسة ببعض الصور الملونة ... وهذا ما نوهت وقصدت استدراكه ...

- هـ -

- تحذير -

الحضاري

يوسف نوفل

كلمة شكر

((من لا يشكر الناس لا يشكر الله))

أتقدم بخالص شكرى وأن يجزى الله خيراً كل من ساعد فى إخراج هذا الكتاب وأخص الناشر / الأستاذ فتحى هاشم والدكتور مصطفى بهجت والأستاذ محمد الجبالى والأستاذ طه بحيرى والأستاذ الدكتور مصطفى رزق السواحلى.

وفقهم الله جميعا عافية نشر الفضيلة والكلمة الطيبة ...

المؤلف



الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبي الأمين ، وعلى آله وصحبه والتابعين إلى يوم العرض والدين ، ثم أما بعد :

أصبحت البشرية المعاصرة مهددة بحرب من نوع جديد لم تألفه في عصورها السابقة هي:-

« لعنة حرب البيئة »

وهذه الحرب ستأكل كما يقولون الأخضر واليابس ، حيث إنه في الحروب التقليدية ربما يكون أحيانا الإنسان هو الضحية ، ولكن في هذه الحرب الجديدة ، التي بدأت تكشر - بشدة ملحوظة - عن أنيابها المخيفة المزعجة، سيكون الحيوان ، والنبات ، والماء ، والهواء ، ولا أبالغ حين أقول أن الذوق العام ، ولمسة الجمال التي أصلها الإسلام وحض عليها بفطرتها النقية الصفية ، وكل ذلك سيكون فريسة هذه الحرب الجديدة ، التي بدأت للأسف - كالسرطان الذي يسري في جسد كوكبنا الأرض منذ بداية الثورة الصناعية ، سريان النار في الهشيم أو سريان الداء في الجسم السقيم

حتى استحال إلى مرض عضال، استفحل على الدواء وعز عليه الشفاء...

حيث لم تراع هذه الثورة الجامحة الجانحة أن يكون هناك من يضع لها الضوابط الشرعية التي ترشدها وتخفف من وقع وطأتها ، وتقلل من كثرة سلبيتها علي بني الإنسان ، والنبات ، والحيوان – وكلهم يسبح الله تعالى – في دورة هذا الزمان على ظرف كوكب المكان أينما وجد ...

** ولكن انطلق العقل البشري كالمارد الذي خرج من قمقمه المفروض عليه ظلما وبهتانا – بعد طول انتظار ، مستغل شهوة العلم السلبية أسوأ استغلال عرفته البشرية في حلقات عصورها الزمنية المتلاحقة ؛ ولذلك لا غرابة أن نجد أن البعض جعل العلم في قفص الاتهام – والإسلام يرفض ذلك شكلا ومضمونا إذا رعيت الضوابط المنهجية – كأن العلم مجرم ، ولكن لماذا هذا التصور والشطط والزيغ ، وما ترتب عليه من انفصام نكد؟

لأنه ببساطة ظهرت بوادر ، ومشاكل ، ومسميات ، وأمراض بيئية لم نسمع عنها من قبل في القرون الأولى ومنها : ثقب الأوزون ٠٠٠٠ الشتاء النووي ٠٠٠٠ الاستنساخ ٠٠٠٠ أسلحة الدمار الشامل والحرب النووية ... الإيدز ٠٠٠٠ جنون البقر ٠٠٠٠ التفاح المسرطن ٠٠٠٠ عبادة الشيطان٠٠٠٠ إلخ ،والأكثر من ذلك ما تناولته وسائل الإعلام عما يقوم به العدو الصهيوني بإعداد قنبلة بيولوجية من خلال الهندسة الوراثية تبيد الجنس العربي دون غيره من الأجناس الأخرى وإن كان هذا مجرد (فشر) وخبل علمي ، إلا أنه يوضح فكرة الخبث واللؤم عما يجيش بأفكار هذا العدو٠٠٠ فضلا عما يمكن استنباطه عن ظاهرة الانحراف عن الإطار العام الذي يجب أن تكون عليه البشرية ٠٠٠٠ فهل سمعنا عن مثل هذه القضايا إلا في عصر

السيد - العلم - وبخاصة عندما أصبحت ناصيته في أيدي الغرب وعلمائه ، وما زالت الأيام حبلى سيلدن كل غربي وعجيب ومثير ، فإذا سألت - الدراسة - وهذا من حقها - لماذا هذه الأمراض المزمنة المؤلمة بأشكالها وأسمائها بدأت تأخذ مساحات واسعة من اهتمامنا وتفكيرنا ؟! أو ما هي أسبابها ؟! لاشك أننا سننطق بصوت عال ونقول : إن ما حدث كان الإفراز الطبيعي بعد العبث بقواعد البيئة الطبيعية ،وروحها الاجتماعية ، وسيرتها الاقتصادية الربانية ، وغياب شريعة عالمية تحافظ على مكونات هذه البيئة، التي هي ملك للجميع ، وأمانة أيضا في أعناقنا بحكم استخلافنا لها وعليها... وبذلك نجد أن البيئة الحضارية وتنمية مواردها موضوع البحث ، ليس مشكلة مصرية فقط أو إقليمية يمكن السيطرة عليها واحتواؤها، وحصر حدودها في نطاقها ، ولكن هذه المشكلة أو إذا صح التعبير هذه الحرب - حرب البيئة - أصبح الجسد العالمي في حيص بيص بشأنها ، بعد التشوهات الأليمة التي لحقته بسببها ، وعجز الأطباء - على حذاقتهم ومهارتهم في طرق علاجها ، وتضميد جراحها النازفة ، بعد أن اشتد بكاؤها ، وانعكس ذلك على قسمات وجهها وطبيعة لونها يوما بعد يوم، وفي الوقت ذاته لهم - أي الأطباء - عذرهم المقبول لغرابة مرضها وتعقيد تشخيصه بصورة واضحة ، فضلا عن حداثتها وشدة وقعتها _ أي حرب البيئة ....

** ومن ثم ، إن لم توضع - ومن الآن - الحلول الناجحة والشاملة لتنمية مواردها البيئية والحفاظ عليها وحمايتها - من خلال الرؤيا الإسلامية (لما يتميز به الإسلام بطبيعته من الشمولية والعالمية) سنلقى عما قريب - لا قدر الله محنة بيئية ....

ولا غرابة إذن أن نسمع بعد ذلك عن أفراد مصابين ب « ضربة بيئية» وبطبيعة الحال ستكون أشد وطأة وتأثيرا من ضربة الشمس الملعونة - والذي يرى البعض أن علاجها يكون ليمونة بالنسبة لسابقتها !! وذلك لأن ضربة البيئة ستكون على الجسم والفكر والتصور والرؤية، وهذا سيكون واقع إذا استمر الحال كما نرى ، وليس من باب التنبؤ العلمي ، وإذا حدث ذلك سيكون إنذاراً بقرب قدوم الحلقة الأخيرة من سلسلة حياة كوكبنا البشري الأرضي ، وانتهاء دورة حياة الكائنات عليه - نهاية مؤسفة مؤلمة - وذلك نتيجة شذوذ الإنسان عن بيئة الفطرة بملامحها الشاملة الجامعة - الإسلام - التي قد فطر الله الناس عليها ...

ومن ثم - مرة أخرى - فإن تنمية موارد البيئة والحفاظ عليها لتصل إلى درجة البيئة الحضارية - الإسلامية - هو مطلب إسلامي ، بل لا نبالغ ولا نكرر إذا قلنا أنه فريضة حضارية -إسلامية - ولننظر إلى آية من آيات كثيرة تحمل معنى الغرض من النشأة البشرية ، يقول الله تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (١) .

نعم ، ماذا سيكون غير العمارة بجوانبها المتعددة ، وقيام الحضارة - الإسلام - الذي هو سبب نشأتنا في هذا الكون لكي تستمر سيرة التقدم، والبناء، والارتقاء ، في الأرض بضوابط شرعية ربانية فلا يحدث انشطار أو انفصام...

ونكرر إذا لم نحافظ على ملامح البيئة الحضارية -الإسلامية - ونعمل على تنمية مواردها والحفاظ عليها ، ستكون - محنتنا البيئية - عندما تكون أقل وطأة ، وأخف ضررا ستؤدي إلى ما يشبه الموت الجماعي ، كما يحدث

---

(١) هود : ٦١

لحيتان البحر مع الفارق – لأنـه سيكون هنـاك خطـر داهم يهـاجم الجميـع ، ويحصد الصفوف ، ولا يفـرق بيـن غنـي وفقير ، وعـالم وجـاهل ، فـالموت بصورته هذه سيحصد الجميع بطريقة لم يسبق لها مثيل على مسرح البشرية.

يقـارن مـا نجم عـن انفجـار مفـاعل تشرنوبيل وقبلهـا قنبلـة هيروشـيما ونجازاكي – وأيضا حادثة جنون البقر ببريطانيا – ٠٠٠٠٠٠٠ وربمـا يكون هذا سببا لوحدتها ، وعودتها – أي البشرية – عـودة سـالمة غانمـة إلـى ربهـا لتسعد بحياتها تحت مظلة ونـور الإيمـان ٠٠٠ وسيكون بوصلتهـا ومصحح مسارها – القرآن الكريم –٠٠٠٠

ونحن معشر المسلمين ، بحبنا لله – جلت قدرتـه – نحب الطبيعـة بكل مظاهرها المتعددة ، وآفاقها الرحبة الفياضـة ؛ لأن كـل مفرداتهـا مـن شمس وقمر، وبحار وأنهار ، وثمار ، وحيوانات ، وغابات ، كل ذلك آية من آيـات الله في الكون ٠٠ ودليل على وحدانيته من خلال وحدة خلقه لها جلت قدرتـه وما أكثر الآيات وأجملها وأبدعها التي تحضنا للنظر إلى السماء وأبراجها .. وإلى البحار وعظيم ثمارها ٠٠ وإلى الأرض ودورانها ٠٠٠ بل أقسم المولى عز وجل بمواقع النجوم .

* **وخلاصة القول** : إن البيئة الحضاريـة – الإسـلامية – لهـا سيمفونية ولحن عطاء قلما وجد في البيئـات الأخرى التي تتمسك بـالأرض وطينتهـا وتترك السماء ونورانيتها ٠٠٠ ونسيج هذه السيمفونية هـي السداة واللحمـة ، أو بمعنى آخر إذا كان – الكون بشموله وعمومه هو كتاب الله المنظـور٠٠٠ فإن – القرآن الكريم – هو كتاب الله المسطور ٠٠٠ والمسلم الحق هـو الذى يجمع بين الكتابين ، أو بين القراءتيـن (المسـطور والمنظـور) وأي انكسـار

لأي قراءة هو انكسار لملامح البيئة ٠٠٠

ويحضرني مقولة هذا الأعرابي البسيط وكيف قادته إلى خالق الكون ، فالمنظور قاده إلى ما دعا إليه المسطور - القرآن الكريم - يقول الأعرابي:-

(البعرة تدل على البعير ، والقدم يدل على المسير ، وسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج ، والبحار بأمواجها وخيراتها - ألا يدل ذلك على الواحد القدير !) .

نعم

نظرة الفطرة هي دعوة للتلاحم والانسجام والتناغم ، فطرة رشّدها وبين معالم طريقها القرآن الكريم ؛ لذلك لا غرابة أن يقول أفضل الخلق ﷺ عندما رأى جبل أحد : ((هذا جبل يحبنا ونحبه))

ما أجمل هذا الحب الذي انطلق من الكون وجماداته ، وعرفت تقوى تسبيحاته ، حب ، شامل ، كامل ، وسع الأحجار بصلادتها ، قبل النفوس برقائقها ، حب يربط الإنسان بحرمتي الزمان والمكان ٠٠٠

فكيف إذن نصل إلى البيئة الحضارية - الإسلامية - وتنمية مواردها والحفاظ عليها ؟ ٠٠ هذا ما ستدور حوله خطوط هذا البحث ، الذي يرى أنها فريضة حضارية - إسلامية - حافظ عليها الإسلام ونماها ورقاها ، فضلا عما وضع لها من التميز والخصوصية كما لو كانت بمثابة - قاعدة فقهية - الخروج عليها خروج على إجماع الأمة ٠٠٠٠

وكل هذا يدل على هدير وعطاء الإسلام للحياة المعاصرة وأن المستقبل للبيئة الإسلامية - الحضارية - وصدق الله تعالى :

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [(١)].

صدقت يا ربي فيما قلت – وقولك الحق – وأبدعت فيما أحكمت وأنزلت وسيظل الإسلام بكينونته وشموليته وعالميته ومظلته الكبرى هو طوق النجاة، وسبيل خلاصها ، ومنقذ انهيارها ، ومنقذ انهيارها عندما يعتريها تيارات المياه الجارفة ، وأمواجها المتلاطمة الحارقة ، لينظروا جميعا بعقولهم قبل عيونهم إلى السماء ولسان حالهم يقول يبتهل ويردد في صمت مع دقات القلب الذي ما فتأت تتقشع عنه غشاوة البعد عن نور الله هذه المعادلة المتوازنة ، التي رسمتها عناية السماء ، فماذا عساها أن تكون :

﴿ الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [(٢)]

* * * * * * *

(١) ص : ٨٨ .

(٢) هـود : ١

(٢) ملامح البيئة التي ننشدها

بداية لا بأس قبل أن نتحدث عن تصورنا لملامح البيئة الحضارية - الإسلامية - التي ننشدها ، والتي عن طريقها نحتفظ بالهوية والأصولية ، والتميز والخصوصية ، وهذا هو الحل للتقدم ، والارتقاء ، والاستمرار ، والابتكار الذي هو طبيعة الأشياء والمواد ، فما هي ملامح البيئة في تعريفها:

((يرى البعض أنها كل ما يحيط بالإنسان من أشياء تؤثر على الصحة ، وبذلك يمكن القول - كما يرى أصحاب هذا التعريف - أن تكون البيئة هي مجموعة العوامل البيولوجية والكيماوية والطبيعية والجغرافية ، والمناخية المحيطة بالإنسان والمحيطة بالمساحة التي يقطنها ، أي المدينة بأكملها ، ساكنيها ، شوارعها ، أنهارها ، شواطئها ٠٠)) .

*هذا ما تم التعارف عليه عن مفهوم البيئة ؛ وماذا عن التلوث البيئي حسب هذا المفهوم ؟

إنه التغيير في الصفات الطبيعية للعناصر التي تتحكم في البيئة التي يعيش فيها الإنسان ، ويرى أصحاب هذا التعريف أن أهمها الماء والهواء والتربة ، تغييرا يؤدى إلى الإضرار بها نتيجة الاستعمالات غير السليمة لهذه العناصر ، وذلك بإضافة مواد غريبة عنها ٠٠٠

وبذلك يرى البعض أن البيئة الصحية تكون بيئة نظيفة خالية من الجراثيم الناقلة للأمراض٠٠

** ونحن لا ننكر هذه التعريفات سواء عن البيئة أو التلوث ، إلا أن الإسلام كمنهاج حياة لا يعرف إعطاء حلول جزئية لقضايا كلية ، الإسلام

تصور كامل لكل صور الحياة ، والتصور الإسلامي بالإضافة إلى شموليته وعالميته ، وطبيعته ، هو أيضا يحمل روح التجديد والابتكار ، وهذه أيضا طبيعة البيئة والتي سنلقي عليها الضوء عما قليل ٠٠ إذن الإسلام - كدين خاتم منظومة شاملة جامعة لما يمكن أن يعتري دوائر حياة الإنسان بدرجاتها المختلفة سواء كانت هذه العلاقة بين الإنسان بذاته ونفسه ، ثم امتداد هذه الدوائر المتداخلة لتشمل الأسرة ، والمجتمع ، حتى تصل إلى أقصى وغاية درجاتها ، وهي علاقة الإنسان بربه خالق الإنسان والبيئة . .

• وفي خلال تحرك الإنسان في مجال وأبعاد هذه الدوائر بأشكالها المتعددة - والإنسان ككائن اجتماعي - إن لم يراع الضوابط الشرعية في شتى أشكالها ، أو أحدث إفراطا أو تفريطا فإنه يكون قد أخل بالنظام المتعارف عليه - والذي فيه مصلحته ومصلحة المجتمع في صورته الكلية - لأن الإسلام يرفض الكهنوتية في أي صورة من صورها ، إنه ليس طقوساً تؤدي بعيدة عن طبيعة وبيئة الحياة والمجتمع ، بل إن الرسول ﷺ هو الذي أوضح - وقد أعطي جوامع الكلم - أن الدين المعاملة.. في صورته الكلية.٠٠٠ معاملة الدينار والدرهم ٠٠ معاملة العهد والميثاق ٠٠٠ المعاملة الاجتماعية ٠٠٠ معاملة الأخذ والعطاء بينها الرسول بقوله ﷺ رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا قضى وإذا اقتضى ٠٠ نعم ، هذا حديث يكاد يغطي روح الإسلام الصافية ، والنابضة بثورة الضمير - وهو العين الذي ترى - هكذا ينظر الإسلام إلى هذه المملكة البشرية وكيفية الطريق إلى سعادتها ، ووسطية أمته، التي تمنح تياراً دافقاً دافئاً من التناسق والتوازن والتناغم بين أفراده ودوله ومجتمعه في كل تطوراتها ٠٠٠

* وهكذا يكون الإنتاج الفكري والمادي بصوره المتعددة ومستوياته المختلفة يخضع أيضا إلى مبادئ مظلة الإسلام وخيمته الكبرى حيث إنه لا ضرر ولا ضرار ٠٠٠ حتى إذا كانت هناك ضرورة فإنها تقدر بقدرها ...

** ولذلك كانت هذه هي تعاليم الإسلام وأحكامه وتصوره للعالم ولكل شئون الحياة ، ورفعه الحرج عن كل ما يمس حياة الإنسان في أي شأن من شئونه ، روحانية كانت أم مادية ٠٠٠ ظاهرة كانت أم خافية باطنة ٠٠ وهذا بسبب شمولية هذا الدين وعموميته أن يكون فيه علاج مناسب لكل أمراض المجتمع في أشكالها المتباينة المتضاربة ٠٠٠٠ وبذلك ٠٠٠ ما عساها أن تكون البيئة التي ننشدها ٠٠ كمجتمع مسلم له مقوماته وأولوياته ؟!

هل هي - البيئة الإسلامية - الحضارية - كالتعريفات التي استمدها البعض سواء عن قصد أو عن غير قصد من الغرب؟ دون مراعاة طبيعة هذا المجتمع ودينه - أو حصر البيئة في دوائرها الطبيعية الثلاث المتعارف عليها (ماء ، هواء ، غذاء) - وبالتالي إذا كان الهواء نقيا عليلا ، وبلسما شافيا.... وقل ذلك على ثروة الماء إذا كان في خريره عذبا سلسبيلا نكون قد خرجنا من لعنة التلوث ٠٠٠٠ والبيئة في هذه الحالة تكون ملكا متوجا ؟!

الإسلام يرفض ذلك بسبب طبيعته ورسالته وتصوره ، والتاريخ الإسلامي يبين انعكاس هذا الدين على بيئته في صورة مجتمعه الذي كاد أن يشمل العالم وفي مراحل تطوره ، وكانت البيئة التي نقصدها لهذا المجتمع الإسلامي الرباني -الحضاري - بتاريخه الناصع البياض أوسع وأشمل من هذه التعريفات الدولية القاصرة للبيئة التي ظلموها عندما أخذوا بناصيتها .. كانت البيئة الإسلامية - الحضارية بشموليتها وعموميتها خيمة كبرى الجميع

ينضوى تحت لوائها ، مظلة عظمى وارفة الظلال أصولها ثابتة عطاءاتها متجددة عبر الزمان والمكان ، بل الحق يقال كسرت بخيراتها حاجز الزمان والمكان ٠٠٠

كانت البيئة الإسلامية – الحضارية – نظاما محكما من السماء لكل صور الحياة بشتى أشكالها وأنماطها على كوكب الأرض ، وليس كما يرى البعض ويحصرها حتى كاد أن يخنقها بجهله لطبيعتها في طبيعتها (ماء ، هواء ، غذاء) ٠٠٠٠ بل بيئتنا التي دقت ناقوس الخطر من أن تتحول هذه النعم بعد التعريف بها ومراحل تكوينها إلى نقم ٠٠ العذب الفرات يتحول إلى ملح أجاج ٠٠٠ الماء الطيب النافع يتحول إلى طوفان كاسح مدمر ٠٠٠ الهواء العليل يتحول إلى ريح صرصر عاتية ٠٠٠ دواليك . . . بيئتنا تشمل الأرض وما يسري عليها والسماء وما يعرج فيها بيئتنا إن كانت لا تنكر المعمل لتحليل الغذاء إلا أنها تضع نصب عينيها ﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ، لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ (١) .

البيئة قانون محكم له روح راقية صافية الجميع يسر بممارسة بنوده ؛ لأن فيه سعادتهم واستمرارها سواء في هذه الدنيا العجوز الشمطاء أم في الآخرة بوعودها الربانية لمن حافظ على ملامح بيئتها الإسلامية – الحضارية التي تبتعد في أقل درجاتها عن أكمل مباهج الدنيا ولا مجال للمقارنة ، ويكفي أهل التقوى بوجوههم الناضرة – إذا استثنينا أهل الجنة وقصورها وحور عينها – أنها إلى ربها – جلت قدرته – ناظرة ٠٠٠٠

---

(١) الواقعة : ٦٤ ، ٦٥ .

البيئة الإسلامية – الحضارية – هي انعكاس لشريعة عالمية الكل فيها – من إنسان وحيوان وجماد – له حقوقه المصونة وعليه أيضا واجباته الملزمة... الأصل في أشيائها الإباحة ، ولا تحريم إلا بنص ... حدودها تدرأ بالشبهات .. لأن الدين الإسلامي دين وقاية قبل أن يكون دين حدود ، جعلت لحفظ حرمة النفس ، والمال ، والدين ، والوطن ، والعرض...

البيئة الإسلامية – الحضارية – بيئة الجمال الروحي والمادي ، جمال وصفاء وتناغم في طبيعة الارتقاء بمفاهيم الجمال ، وهو ضرورة من ضرورات هذا الدين وآفاقه الرحبة التي قامت على معيار الحق ، والخير ، والجمال ، ويكفينا تأصيل الرسول لهذا الجانب عندما يسأل ﷺ بأن أحد أصحابه – رضوان الله عليهم – يحب أن يكون ثوبه نظيفا ونعله نظيفا ، وهنا يربطه الرسول ﷺ بماهية الجمال المطلق ، الذي ليس كمثله شيء – جلت قدرته قائلا للسائل : ((**إن الله جميل يحب الجمال**)) إلى ما حواه دستور الإسلام الخالد – القرآن الكريم – عن الجمال والحسن ، للكون ، بل وللحيوان حتى امتد إلى الجانب الروحي السلوكي ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾ (١) .

البيئة الإسلامية – الحضارية – بيئة العزة الاقتصادية وانعكاساتها الربانية على المجتمع دون غش أو احتكار، أوربا وبخس الناس أشياءهم.... اقتصاد قائم على الإيثار ، وتغذية ملامح وروافد البر والتقوى، مجتمع طبيعته التكافل بين أفراده ... فقيرهم تكاد لا تعرفه فالتعفف سمة بارزة في شخصيته حتى يحسبه الجاهل من الأغنياء ووجهاء القوم ..

---

(١) يوسف : ١٨ .

البيئة الإسلامية - الحضارية - هي كيان عضوي حي ، وفي الوقت ذاته نسيج وحده ، بينها الرسول في هذا اللفظ الذي يوقظ الهمم الساقطة التي صارت أشلاء لا يربطها رابط - الجسد الواحد - إذا اشتكي منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، فالانفصام والانقسام بين تكويناته وطبقاته ودوائره المتعددة ولو تباعدت فنسيجها واحد .

الجزء فيه في مظلة وامتداد الكل ٠٠٠ والكل فيه أمامه الجزء كعضو من تكوينه الداخلي كالمحيط الشاسع الذي يمتد وكلما امتد كانت الجزر المتناثرة بين رحابه وآفاق شواطئه ضمن طبيعته وملمح من ملامح تكويناته.

البيئة الإسلامية - الحضارية هي بيئة الأخلاق وهي مولدات ومحركات طبيعية للروح الاجتماعية ، التي كانت تسري في النفوس كالتيار الكهربائي فيحرك مفردات قوتها الإيمانية بعد أن يكون قد ران عليها الصدأ٠٠٠٠ والأخلاق هي عماد وركن من أركان هذه البيئة وإذا نظرنا إلى الأقوام السابقة كقوم نوح ، ولوط ، وعاد ، وثمود ، وشعيب ، وفرعون ، سنجد أن اللعنة قد حقت على هذه الأقوام بسبب تلوث أخلاقي سواء كان ذلك في تطفيف الكيل والميزان أو التكبر في الأرض ،أو الشذوذ عن طبيعة العلاقات الزوجية المتعارف عليها ٠٠٠٠ فالبيئة الإسلامية هي بيئة الأخلاق ٠٠٠

البيئة الإسلامية - الحضارية - هي بيئة الإعلام الرفيع المسئول ، الذي تراعي فيه الضوابط والحرمات ، وليس السير في ركب موكب المتغيرات ، بيئة السمع ، والبصر ، والفؤاد ، حواس كلها مسئولية أمام علام الغيوب،٠٠٠٠٠ الكلمة الطيبة هدف أساسي وغاية تسعى إليها هذه البيئة

كالشجرة٠٠٠٠ فهذه البيئة دعوة للتشجير ٠٠٠٠ القذف - دون دليل - جريمة كبرى٠٠ وهذا هو المأزق الذي وقع فيه الإعلام المعاصر ٠٠٠

البيئة الإسلامية - الحضارية - بيئة جهاد وقوة عسكرية ، مصدرها أخذ بكل أسباب التمكين في الأرض ٠٠٠٠ وفي الوقت ذاته هناك الأمل الأكبر والواسع في إمدادات السماء بجنودها التي لا يعلم قدرها وقوتها إلا رب السماوات والأرض ٠٠٠٠ ثم إن الشهادة فيها هي أقصى درجات الأمل المنشود ٠٠

وفوق ذلك هي بيئة سلام فرضته مبادئ هذا الدين ، فالمولى عز وجل هو السلام ٠٠٠٠ والجنة هي دار السلام ٠٠٠ تحيتنا اليومية في الملتقى والمفترق وهي السلام ٠٠٠٠ بها نختتم شعائر صلاتنا ٠٠٠٠ فالسلام طبيعتنا ٠٠٠٠ والقوة بالنسبة له مصدر من مصادر حمايته وريادته ٠٠٠٠ إذن القوة هي قوة سلام ووئام ٠٠٠٠ وإذا استخدمت القوة فهي لإرهاب عدو الله الذي ينشر أسباب التدهور البيئي في الأرض ٠٠

بيئتنا الإسلامية - الحضارية - هي بيئة فكر ، وتأمل واستلهام واستنباط واستنتاج ٠٠٠ خاصية التفكير والتفكر فيها ضرورة عينية من ضرورات هذا الدين ٠٠ وفرض دعت إليه آيات قرآنية تفوق الحصر والعد٠٠٠ بل أسقطت في بيئتنا التكاليف على من لا ينعم بهذه الهبة الربانية- العقل - من مس أو جنون ٠٠٠ في الوقت الذي نرى بعض الشرائع عاقبت الحيوان الأعجم ٠٠٠ ٠٠ كانت البيئة عالمية - أي البيئة الإسلامية - الحضارية - في طبيعة شموليتها لمعادن الإنسان فحطمت العنصرية البغيضة ٠٠٠٠ والقبلية القبيحة ٠٠٠ والعصبية العمياء ٠٠ في أي شكل من أشكالها وفي أي مظهر من مظاهرها ٠٠٠ وإن كان هناك تقدير لطبيعة معدن دون آخر فذلك

بسبب نسبة التقوى في هذا المعدن ... ولا فرق بين جغرافية هذا المعدن - الإنسان - عربيا كان أو أعجميا .... وكذلك جغرافية الألوان أبيض كان أو أسود ... فنسبة التقوى هي الفيصل لأنه عن طريقها ترتبط مصالح البيئة وتنميتها بعد أن تلتقط أثير إصلاحها من أحكام السماء .... انظر إلى هذه الظاهرة الفريدة ، لهذا الجيل الرباني الذي يكاد يعقم الزمن عن تكرار مثل هذه الظاهرة الفريدة ، فهذا صهيب الرومي وهذا بلال الحبشي وأضف إليهم سلمان الفارسي .. كانت عالمية هذه البيئة باحتوائها لطبيعة الزمان والمكان ، فالمجتمع تحت بيارقها سواء... فإن كان العالم من ناحية الاصطلاح الجغرافي مكون من قارات ... فطبيعتها أي البيئة الإسلامية - الحضارية - (التي ننشدها) هي عابرة لحواجز هذه القارات .... لأن هكذا كان تصميمها الذي قدر لها.. كسر الحواجز؛ لأن وحدة الله جلت قدرته - تتراءى من خلال وحدة خلقه... فلا وطنية ولا قومية ولا شرقية ولا غربية ، وإن وجدت فهي داخل هذه المحيط الزاخر الهادر الذي يحتويها ويصبغها بصبغته التي استمدها من صبغة الله ... ومن أحسن من الله صبغة ...

البيئة الإسلامية - الحضارية فيها مكان فسيح للسياحة والفكاهة... بل هي من سنن هذا الدين ، وهاهو قدوتنا وما كان يدعونا إليه من الترويح عن القلوب ﷺ حتى تظهر نواجذه الشريفة، وهو الذي كان يكنى الطفل الصغير ويقول له ((يا أبا عمير ماذا فعل النغير (عصفور)[1])).

---

(١) متفق عليه .

والسياحة في بيئتنا مبعث إيحائها ومفجر إيمانها ٠٠ الآيات القرآنية التي تدعو إلى السير في الأرض والوقوف على سير الأولين وكيف أتت عليهم سنن الله ٠٠٠ فالسياحة الإسلامية شاملة جامعة ٠٠٠ تعرف – من خلال سياحتها – الأسباب التي أدت إلى التدهور في هذه البيئات ، والعوامل التي تؤدى دائما إلى نفس « ظاهرة السقوط » ، فالسياحة في الإسلام نوع من أنواع العبادة ٠٠٠٠٠ وأمر دعا إليه الدين ٠٠٠٠ وبالتالي السياحة – في بيئتنا – هي سياحة فكر ، وعقل ، ووجدان ، وعاطفة جياشة ، وأحاسيس مرهفة ، وتصور شامل جامع ٠٠٠٠ ولننظر إلى مقولة « ابن تيمية » عندما اشتد عليه البلاء إبان الحكم الأموي في حاضرتها دمشق قال : (إن قتلي شهادة في سبيل الله ، وحبسي خلوة أذكر فيها الله ، ونفيي خارج دمشق سياحة في أرض الله ، فإن جنتي وبستاني في صدري وهي معي لا تفارقني، وبذلك قطع كل الطرق على كل من يحاول النيل من مواقفه ٠٠٠

أضف إلى ذلك أن السياحة في بيئتنا جماعية طبيعية هذا الدين ، دين الجماعة، وأجمل مظهر يعبر عن طبيعة هذه البيئة السياحية ٠٠٠ سياحة الحج ٠٠٠٠ والزي الموحد لهذا الحجيج ٠٠٠ والارتباط بحرمات الزمان والمكان ٠٠٠ والتجرد الكامل لطبيعة هذه السياحة التي تعيد إلى الجسم كينونته وإلى الذات ذاتيتها ٠٠وإلى الأرض رحابة السماء ، والكل في صوت هرموني واحد ، نبرته الإيمان ، وأمله الاستجابة (لبيك اللهم لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك) ما أجمل هذه السياحة التي تظهر عالمية هذه البيئة وطبيعة هذا الدين، وهو أيضا نوعٌ من أنواع تنمية موارد البيئة لأنه – أي الحج – بالإضافة إلى هذا الجمع الغفير مطلوب من عالم

المسلمين في هذا المؤتمر العالمي ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾[1] .

كانت البيئة أخيرا إسلام يمشي على الأرض ٠٠٠٠ والإسلام هو البيئة في أروع صورها وأدق خصائصها ، وأجلى معانيها ، وأبهي حللها٠٠٠ فإذا قلنا ((بيئية الإسلام)) فربما أصبنا الحق ٠٠٠ وإذا قلنا بتعبير ((الإسلام البيئي)) كدعوة إلى أسلمة علوم المعرفة والدراسات الإنسانية والحضارية٠٠ نكون قد اقتربنا من الحقيقة ، لتدخل البيئة إلى هذه الدوائر على أهميتها وحساسية التصاقها ، وبذلك يكون أمامنا ((قاعدة بيئية)) أرضيتها إسلامية ، والقاعدة في اللغة تطلق على الأساس ، وفي الاصطلاح هي قضية كلية ينطبق حكمها على الجزيئات ٠ ومن أهم قواعدنا الفقهية في الشريعة الإسلامية ((أن الضرر يزال)) وهل التلوث في أي شكل من أشكاله أي ضرر. [2] ومن ثم نجد أن البيئة عبارة عن مسرح كبير مفتوح تمارس عليه طبيعة الحياة ، وبالتالي هي انعكاس لممارسة شعائر الإسلام وفكره ومذهبيته وتصوره ، ولهذه الرؤية الكلية لجميع قضايا الحياة ، على أساس أنها تشكل بشكل أو آخر مظهرا من مظاهر البيئة ، فإن الخروج عليها والتعدي على صون وحمى حرمتها التي حددتها وبينت معالمها الشريعة الغراء ، هو إضرار بالبيئة وتلوث لها ، في الجزئية التي تم التعدي عليها٠٠ والتلوث لها٠٠ وسواء كان هذا التعدي أدى إلى تلوث وفساد للهواء ٠٠٠ أو للماء٠٠

---

(١) الحج : ٢٨ .

(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام ، للإمام العز بن عبد السلام .

أو للغذاء .. أو للجماد أو للحيوان ... أو لأي مظهر من مظاهر العلاقات الاجتماعية أو الاقتصادية أو في أي منحى من مناحي الحياة علمية كانت أو فكرية .

لأن كل مظهر وجانب من جوانب هذه الحياة هو جانب من جوانب هذه البيئة المسلمة بطبيعتها ، وبالتالي يجب أن يخضع عند التعامل مع مفردات هذه البيئة لروح الإسلام وتعاليمه السامية والتي هي بطبيعتها الملاذ وطوق النجاة وهنا تنكسر ظاهرة الخلل الذي قد يعتري ملامح هذه البيئة والذي ينعكس على مسيرة المجتمع وتقدمه وتطوره وربطه بقيم السماء ... وبسقوط الخلل هذا ، تكون البيئة الإسلامية بيئة بلا مشاكل ، فلا فساد ولا تلوث ، وإذا وجد هذا الفساد أو هذا التلوث يكون المجتمع هو الذي انحرف عن مراعاة قواعد هذه البيئة وسلامتها من سلامة البشرية..

وبعد هذه المفردات والمقدمات نأتي إلى النتيجة والمعادلة وهي ظاهرة للعيان في التاريخ الإسلامي - إننا لا نستطيع أن نحافظ على بيئتنا في صورتها الكلية إلا بإسلامنا ، ولا نستطيع أن نحافظ على إسلامنا إلا بالمحافظة على سلامة بيئتنا ، فهي قضية جامعة مانعة إذا رأينا رؤية وفلسفة أهل المنطق وبذلك نكون قد فتحنا بابا جديدا لأبواب الدعوة إلى الإسلام ، وتصحيح انعكاس مفهوم لا إله إلا الله ، وهاهو العالم أصبحت صورته مهتزة بيئيا ، وهنا يكون مدخلنا لعلاج هذا المرض الذي أفرزته المادية المعاصرة ، وحدد علاجه القرآن ، فضلا عما افترضه علينا القرآن من وصيتنا على البشرية في أشد خصائصها - مفهوم العقيدة .

﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله...﴾ بعد أن غاب عن عقلهم (وانطمست بصيرتهم) الهدف الأساسي لهذه الحياة ، أو كما يحكي الله في القرآن عن الدهريين :

﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ [١] .

وإن كان ردها دارون وتلاميذه إلى أن « الطبيعة » هي التي تخلق الحياة وتسلبها من الكائن الحي هنا يأتي دور هذا المفتاح - البيئة الإسلامية - التي بينا ملامحها التي ننشدها وهي مستمدة من طبيعة وأيدلوجية ومذهبية هذا الدين وتصوره الكامل لقضايا الحياة بأنماطها المختلفة ، وكان من ضمن رؤيته الشمولية والعالمية ، وليس مجرد تهويمات أو مسكنات تعالج ، جزءا من المرض دون معرفة الأصل وذلك بسبب جزئيتها وقصورها هي أيضا ، حتى إذا نجحت تكون لفترة من الزمن وعلى جزء من المكان ٠٠ إلى أن يأتي المنظار العام لهذا الدين الذي قال فيه رب العالمين هذا القول الخالد المبين على مرحلتين :

ظرف الأيام والدهور والسنين لكي يحصحص هذا الحق المبين وينبلج نوره وهداه للسالكين على الضرب ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ [٢] .

وعود على بدء إن كانت رأت طبيعة البحث أن تكون هناك قاعدة بيئية فيمكن أن تكون خلاصتها من الخلاصات السابقة بفضل الله وتوفيقه :

« السلامة في البيئة في إسلام البشرية »

* * * * * * *

---

(١) الجاثية : ٢٤ .

(٢) الكهف : ٥٤ .

* الإنسان ومسئولية الخلافة في الأرض *

الإنسان أصل مكين في هذا الكون ، وعندما خلقه الله تعالى فضله على سائر مخلوقاته ، بإرساله رسله، وشرع شرائعه ، وجعله خليفته في الأرض، فإذا تهذب بتهذيب الدين، سما في معارج الكمال ، حتى إن الله تعالى ليباهي به ملائكته المقربين ، وإذا فسق وفجر ، وطغى وكفر ، هوى إلى أسفل السافلين ، وانحط إلى مستوى الشياطين ٠٠ والإنسان هو محور القرآن الكريم ، بل إن القرآن هو بمثابة طوق النجاة للإنسان ، وأتذكر مقولة لأحد العلماء ، أن ((القرآن وسيلة والإنسان هو الغاية)) أي الغرض من القرآن هو سعادة الإنسان ليقوم بأداء الخلافة في الأرض ؛ ولذلك كانت أكثر الآيات إسقاطاتها على الإنسان مباشرة .

﴿ وكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [1] .

﴿ وكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً﴾ [2] .

﴿ إِنّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إِذَا مَسّهُ الشّرّ جَزُوعاً ، وَإِذَا مَسّهُ الخَيرُ مَنُوعاً ، إِلاّ المُصَلّينَ ﴾ [3] .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مّن طِينٍ ٠٠٠٠ ﴾ [4] .

والإنسان المسلم بقدر هذه الخلافة ، ودورها في عمارة البشرية ؛ لأنه يسعى إلى أمل أكبر وهو رضي الله سبحانه وتعالى ، فها هو عبد الله بن

---

(١) الكهف : ٥٤ .

(٢) الإسراء : ١١ .

(٣) المعارج : ١٩- ٢٢

(٤) المؤمنون : ١٢

رواحة رضي الله عنه يوم حمل اللواء في مؤته، وترددت نفسه بين الإقدام والإحجام فقال يعاتبها :-

مالي أراك تكرهين الجنة   هل أنت إلا نطفة في شنة

ومن هنا كان الباعث والمحرك لهذه النفس : العقيدة ، والتوحيد لله رب العالمين ، وهذه هي مسئولية الإنسان عبر العصور ، وإذا صحت هذه المسئولية ، صحت كل مظاهر الحياة وتقدمت شئونها ، وارتقت مدنيتها ، ولذلك نجد أن مبدأ- التوحيد - ، كان هو الركيزة الأولى الموجهة للإنسان عبر العصور ، وكان هو أيضا - التوحيد بمثابة السلامة البيئية ولننظر إلى سيرة البشرية ، وتركيز الله عز وجل على هذه القاعدة ؛ لأنها هي التي يبنى عليها أساس الخلافة ، بل إن التوحيد كان هو قاعدة كل ديانة جاء بها من عند الله رسول ، والقرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (1).

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ (2).

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَآءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (3).

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ

---

(1) الأعراف : ٥٩ .

(2) الأعراف : ٦٥ .

(3) الأعراف : ٧٣ .

جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (١) .

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ، مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَآ أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ (٢) .

هذا هو الإنسان الذي كرمه الله قائلا ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ .

هكذا كان حكمه جلت وعظمت قدرته ، وهكذا أيضا كان نور مشيئته أن يكون هذا الإنسان الضعيف من الحول ، والقوة ، والعظمة ، وذلك بتوحيده سبحانه لأن الإنسان بتوحيده ربه ، يحقق مبدأ الخلافة في الأرض ، وهذه الخلافة هي أيضا لنشر قيم الخير ، والحق ٠٠ والجمال ٠٠٠ والسعادة٠٠٠ وكانت المسئولية لتحديد معالم وطبيعة الطريق إلى هذه السعادة الدنيوية وكيمياء بهجتها وهي أيضا حلقة موصلة إلى سعادة الآخرة٠٠ إذن المسئولية المتمثلة في رعاية حقوق الله هي لخير الإنسان عينه وذاته ٠٠٠ وفي المحافظة على هذه المسئولية - من أوامر ونواهي - هي محافظة على السلامة البيئية والتوازن البيئي وحماية موارده سواء كانت هذه الموارد البيئية مادية أو روحانية تتصل بمعاني النفس وارتقائها٠٠٠

إذا لو صحت مسئولية الخلافة بضوابطها الشرعية ثم القضاء على أشكال الخلل الذي يؤدي إلى الفساد أو التلوث في أي صورة من صوره ٠٠ ومسئولية الإنسان وخلافته في الأرض قد شاءت قدرة المولى عز وجل

---

(١) الأعراف : ٨٥ .

(٢) المائدة ١١٦، ١١٧ .

أن تعفي الإنسان من رسم خيوطها العريضة ··· فالمسئولية حددها الشارع سبحانه وتعالى ، والتي من خلالها يدور ناموس الكون ··· ولو أن الإنسان هو الذي حدد طبيعة المسئولية في إطارها العام ؛ لتضاربت الأهواء واختلفت النفوس ، وتباينت المشارب ··· وتصادمت الرغبات ··· وتفشت النزعات··· واختلفت التوجهات ··· وخفتت اللمسات الروحانية والومضات الإشراقية والتجليات الربانية والنفحات الإلهية ···

هذه هي رحمة الله تعالى بعباده أن وضح المنهج جلت قدرته ··· بيَّن الطريق ومعالمه ··· حصحص الحق بحصحصته سبحانه وتعالى للأوامر التي يجب اتباعها والنواهي التي يجب اجتنابها سرد بفضل علمه أحسن القصص للأمم الغابرة ، وكيف كان الفساد – التلوث – هو الذي يقود بنيان هذه المجتمعات ويأتي على ثمار مدنيتها ؛ لأنها بعدت على مراعاة السلامة البيئية وهدرت حق الخلافة في الأرض ، في أي صورة من صوره ويكون ذلك إذعانا بتحول الجنات والعيون والقصور إلى أطلال وخرائب ينعق فيها البوم والغربان ونحن نرى كما يبين القرآن ، كيف كانت نهاية هذه الأقوام بعد أن أهدروا حق الخلافة في الأرض وعمارتها والمحافظة على سلامة بيئتها وتنمية مواردها ، فهؤلاء أخذتهم الصيحة فأصبحوا في دارهم جاثمين وهؤلاء أخذتهم الرجفة ··· وآخرين أرسل الله عليهم ريحا صرصرا عاتية··· نعم أنواع مختلفة من العذاب ، وقدرة خارقة على الإهلاك بعد عدم مراعاة حقوق الخلافة والمسئولية في الأرض ···· وإذا تتبعنا سيرة الآيات الأولى عن الأقوام والتي أغلبها ورد بسورة الأعراف كقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وغيرهم ، نجد تلازماً واضحا بين الدعوة إلى التوحيد الذي

هو حجر الزاوية للخلافة وسبيل تحديد المسئولية ، وما نالهم من عقاب الله عندما حادوا عن هذه الخلافة وعن متطلبات هذه المسئولية ٠٠٠ فارتكبوا مظاهر فساد - تلوث - مختلفة ، فكانت العقوبات مختلفة ، والجزاء من جنس العمل ٠٠٠

ولنبدأ بنوع من أهم ما يميز مسئولية الإنسان ، ماذا عساه يكون؟ ، غير عمارة الأرض بعد عمارة الأبدان والنفوس بنور التوحيد كما بينا لأنه الأصل، فلا بأس بأن ننظر إلى هذا التصوير البليغ الذي يأخذ بالألباب ، ويقوى حاسة الإيمان ، ويزكي نور الفطرة ، وينشلها من أمراضها وأدرانها وهو يعتبر أيضا بمثابة عبرة ، أو كما أوضحنا - قاعدة بيئية تحتذي على مستوى الأفراد والجماعات والأقوام والدول ٠٠٠ بل يمكن جعلها خلاصة تاريخية لقضايا بيئية مستقبلية ٠٠٠ القرآن هو الذي حدد معالمها ورسم نهايتها ٠٠٠ وشخص أسباب خللها الذي كان فيه فسادها والحلقة الأخيرة لانتهائها ٠٠٠ ولم لا ؟! ألم تَحِدْ عن الطريق المرسوم الرباني بأشكاله وأبعاده وإشاراته ٠٠ وانزلقت راضية عن رصيفة الرباني المستقل الآن ؟ فماذا ينتظر إذا كانت هذه تركيبة المقدمات المؤلمة المزعجة ٠٠لاشك أن النتائج ستكون بانوراما من الشطط والتلوث المركب والانفصام النكد والانقسام الحاد ولنعيش الآن مع تدهور الإنسان في المسئولية الملقاة عليه وكيف عبث بنعمة الخلافة وماذا فقست وأفرخت هذا ما يصوره القرآن ، وبعضه يفسر بعض ، والآن مع النور الرباني والناموس النوراني :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ، وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ، وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ، الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ،

﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ، إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [1] .

أعتقد أننا لسنا أمام معادلة من معادلات الدرجة الثانية ولا حتى الأولى، فلا بأس بفلسفتها رياضيا :

كثرة الفساد = سوط عذاب

أو بتعبير مختزل :

فساد = عذاب

أو بالشفرة البيئية :

تلوث = عذاب

نتيجة منطقية حتمية بعد شيوع لعنة التلوث : انظروا إلى مآل الطغاة عبر التاريخ تجد أنه مرتبط ارتباطا وثيقا ببراثن الفساد ٠٠٠ وهذا ما صورته الآيات الكريمة عندما خرج الإنسان بخلافته الطبيعية عن مسارها المرسوم لها ٠٠٠ وجنحت إلى الفساد بطبقاته ، والهوى بانقساماته ونزواته٠٠٠ والبعد عن فيض النور والخلافة بهداياته وتجلياته ((فصب عليهم ربك صوت عذاب)) قدرة السماء بجبروتها على وضع النهاية المناسبة، قدرة الله! قدرة على تحديد المسار ٠٠٠ إزالة الفساد بكل مسمياته٠٠٠ التلوث بأدرانه حتى ولو علت وارتفعت طبقاته ٠٠٠ عدالة السماء في إعادة مؤشر البوصلة لرسم معالم الاتجاه من جديد ٠٠٠٠ حكمة السماء وتمكنها لرسم معالم الاتجاه من جديد ٠٠٠٠ حكمة السماء وتمكنها من التحكم في إحكام دفة السفينة البشرية حتى تصل لشاطئ الأمان ٠٠٠

---

(١) الفجر : ٦-١٢ .

وهذا نموذج لكل فرعنة إذا اعتبرتها ظاهرة تضر بالسلامة البيئية يمكن أن تطفو على السطح ، أو يفرزها واقع معين تقل فيه مقومات الخلافة فى الأرض وما يتبعها من مسئوليات ٠٠٠ والإبادة والانهيار لظاهرة الفراعنة – الفساد – ليس وقفا على الدنيا ، بل تكون بداية الحلقة الأولى للذل والهوان ، والصغار والعار والشنار ، وهنا يبلغ الشوط مداه عندما يبين الله سبحانه وتعالى هذه الحقيقة :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [١] .

* * * * * * * *

---

(١) غافر : ٤٦ .

لعنة الفساد

هذا الفساد هو الفيروس والسوس الذي كان ينخر في فرعون وقومه٠٠٠ والفساد ضد طبيعة رسالة الحياة وعمارتها وشيوع وانتشار قيم الخير والحب والجمال والتعاون والبر والتقوى والتكافل والإيثار والعفة٠٠٠٠ ولذلك إذا شاع الفساد في قوم كان نهاية وجودهم وبداية حتفهم، لأنهم يغيرون رسم صورة الحياة ، ومدينتها الفاضلة ، والتي صلاحها في الملاذ والمبادئ الإسلامية ونور فطرتها ٠

انظر إلى هذا الفيروس الذي تنبهت إليه الملائكة عند خلق آدم عليه السلام ، وهذا الحوار الذي بين الله جلت قدرته ، الملائكة وهم أفضل خلق الله ، كانت القضية المثارة ، قضية العصر – التلوث – الفساد بلعنته الكريهة وأضراره الخبيثة ، وروائحه الغريبة المميتة .

سبحان الله !! لهذا القول الخالد الذي سوف يظل يردد في قرآن يتلى ما بقيت السماء والأرض قالت الملائكة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ٠٠﴾ (1) .

كان هذا هو المحظور ٠٠٠ التدهور البيئي ٠٠٠ الاندثار والانهيار٠٠٠هذا ما أرسلت عليه الإسقاطات الملائكة ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ ﴾ .

ثم انظر إلى بعد أرحب وأوسع يبين وقع وسرطانية هذا الفيروس الخبيث الذي قلما يظهر على السطح إلا بانهيار شبه تام ((للسلامة

(1) البقرة : ٣٠ .

البيئية)) ••• فيروس الفساد ودوائره المغلقة العفنة لظرف زمنها ومكانها•••وماهي نتيجة التلازمية التي تذكرنا بالمتواليات الرياضية؟ •• هذا هو صنم الفساد .

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١) .

الفساد ••• في عالم البر والبحر ••• المنتهك والجاني هو الإنسان••• المجني عليه حرمات الله البر والبحر ••• يا ترى كيف تذهب هذه القضية؟ ••• ماذا يجب على القاضي جل شأنه في الفصل في هذه القضية ، وقد انتهكت الحرمات التي حافظت عليها الشريعة؟ ••• ثم إن القضية تعدت الجانب المدني والجنائي ••• بل الغش والتدليس رغم فظاعته••• ولكن العادل تجلت أسماؤه دائما بالمرصاد••• وهو القائل عن ذاته.

﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٢) .

نعم ، إن الله شديد العقاب ••• ثم يبين سبب ذلك ، وهذا المذاق الذي يتعرض له أهل الفساد ((لعلهم يرجعون)) ولذلك حتى لا نقع في هذا المستنقع الآسن أن نفر إلى الله ، فالخوف منه يدعو إلى الهروب والفرار إليه ، ففي كنفه السعادة بعطاءاتها المتعددة وهذا ما قرره القرآن .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) الروم : ٤١ .

(٢) الأنفال : ٢٥ .

(٣) الأنفال : ٢٤ .

الله لهذا الإمداد ! الله لهذا العطاء ! الله لطبيعة هذا الملاذ والملجأ !

الله أكبر لصورة هذه الحياة ونوعها !! وقياسا على المعادلة التي سبق وأن ذكرناها ، نذكر مرة أخرى هذه المعادلة لهذه الآية القرآنيـة .

استجيبوا لله وللرسول = دعوة لما يحييكم

بتصرف واختزال :

استجيبوا لله وللرسول = دعوة مفتوحة للحياة

اختزال الاختزال:

استجـــابـــة = حيـــاة

بلغة الاصطلاح البيئي :

إصــــــلاح = ازدهار وإعمــار

والعكس بالعكس :

وبالتضاد تظهر الأشياء :

فســـــــاد = عذاب

تلــــــوث = انهيار وإقفار

أليس بعد هذا العرض أردنا صبغه بالصيغة الرياضيـة لبيـان قدرة اللـه في إحكامه لآياته ، والتي نخرج منها أن السلامة البيئية والحيـاة الراغدة فـي الاستجابة للـه ولرسوله - الإسلام - وعلى الجـانب الآخـر أن الفسـاد ضـد الصلاح ، والمفسدة ضد المصلحة ... التلوث مـا هـو إلا اختـلال مكونـات المادة الأساسية بدخول مواد غريبة عليها ... لترسم هذه النهاية الجمع بيـن كتاب الله المسطور (القرآن الكريم) ، وكتاب الله المنظور (الكون) .

استدراك :

ماذا عن الفساد في الفقه ؟

يقول د . عبد الكريم زيدان : في كتابه « الوجيز في أصول الفقه » البطلان والفساد بمعنى واحد عند الجمهور ، فكل عبادة أو عقد أو تصرف فقد بعض أركانه أو بعض شروطه فهو باطل أو فاسد ولا يترتب عليه آثاره الشرعية .

وعند الأحناف البطلان غير الفساد ، فالبطلان عندهم فيما يكون وصفه مختلا بفقد شرط والفساد عندهم فيما يكون وصفه مختلا بفقد ركن .

*****

الاهتمام بالإنسان محور الكون جسميا وعقليا

ولهذا الخليفة ، محور هذا الكون ، وأنه مسئول عن عمله ، لا يؤخذ واحد بوزر واحد ، ولا أمة بوزر أمة ﴿ كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [1] .

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [2] .

ولذلك نجد أن هذا الخليفة - الإنسان - عندما فرض الله عليه العمل ، نجد أن العمل شُرِطَ في القرآن بالتكليف الذي تسعه طاقة المكلف وبالسعي الذي يسعاه لربه ولنفسه •

﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾[3] .

﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ [4] .

وإن كان هذا الإنسان وصف دون غيره من الخلائق بالكفر والظلم والطغيان والخسران والفجور وكلها ملوثات بيئية ؛ لأنه في الوقت ذاته أهل للإيمان والعدل والرجحان والنفاق .

﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [5] .

---

(١) الطور : ٢١ .

(٢) البقرة : ١٣٤ .

(٣) البقرة : ٢٨٦ .

(٤) النمل : ٣٩ .

(٥) إبراهيم : ٣٤ .

﴿ كَلاّ إِنّ الإنسَانَ لَيَطغَىَ ، أن رّآهُ استَغنَىَ﴾ (١) .

﴿ إِنّ الإنسَانَ لَفِى خُسرٍ ﴾ (٢) .

وبذلك نجد أن الإسلام اهتم بهذا الإنسان وبين له الطريق ، في الوقت الذي ما زال يتخبط فيه الغرب رغم تقدمه المادي حول معرفة ذلك ويظهر ذلك من خلال كتاب « الإنسان ذلك المجهول » للعالم الأمريكي « ألكسيس كاريل » ولكن الإنسان طبقا - للمذهبية الإسلامية هو سيد هذه الأرض ، بخلافته فيها عن الله ، وكل ما فيها مسخر له ، بقدرة الله تعالى ، وقد أوتي مكان العلم بشؤونها هبة من الله سبحانه ، والاستمتاع بطيباتها وجمالها نعمة منه خالصة ·· وليست الأرض وحدها وكل ما فيها من أحياء وأشياء ··· ولكن كذلك السماوات مهيأة لمساعدة الإنسان في خلافته في الأرض ، ومراعي في بنائها دور الإنسان في هذه الخلافة .

﴿ هُوَ الّذِي خَلَقَ لَكُمْ مّا فِي الأرْضِ جَمِيعاً ﴾ (٣) .

﴿ اللّهُ الّذِي سَخّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾ (٤) .

﴿ وَالأنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٥) .

* وبالإضافة إلى ذلك بين القرآن معالم ، وقوانين تبين له وتسهل مهمة خلافته .

---

(١) العلق : ٦ ، ٧ .

(٢) العصر : ٢ .

(٣) البقرة : ٢٩ .

(٤) الجاثية : ١٢ .

(٥) النحل : ٥ .

﴿ ولَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ، يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مّنَ الْحَيَاةِ ﴾ (١)

﴿ ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾(٢)

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنّ اللّهَ عَلَيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٣)

﴿ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً ﴾(٤)

وهذا البيان الشامل لقضايا قد تغيب ويعجز الإنسان عن الفصل فيها ما هو إلا اهتمام بالإنسان وغلق دائرة من شأنها بلبلة أفكاره وتضاربها ..

ولننظر أيضا إلى هذا المبدأ النبوي الذي أرساه في خطبة الوداع (أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت اللهم فاشهد ألا فيبلغ الشاهد منكم الغائب) .

ويقول عمر بن الخطاب : لأبي موسى الأشعري قاضيه على الكوفة ((آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك)) .

ومن رعاية الإسلام أيضا للإنسان المحافظة على حرمة حياته .

---

(١) الروم : ٦-٧ .

(٢) الإسراء : ٨٥ .

(٣) لقمان : ٣٤ .

(٤) النساء : ١١ .

﴿ ولاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ (١) .

بل إنه اعتبر قتل نفس واحدة بمثابة قتل الناس جميعا ، ويقول الرسول ﷺ ((لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم)) (٢)

لدرجة أن الإسلام شرع أيضا عقوبة للقتل الخطأ خروجا على القاعدة الشرعية التي تقرر أن الفرد لا يعاقب إلا على ما يحدثه عن قصد وإرادة وفي هذا أبلغ الدلالة على مدى حرص الإسلام على حفظ الحياة وحماية النفس .

•• ونجد أيضا اهتمام الإسلام بالإنسان وحقه في الكرامة ألم يقل الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

ويقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ﴾ (٤)

•• وهنا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : ((من جلد ظهر مسلم بغير حق لقي الله وهو عليه غضبان)) (٥)

بل تبلغ ملامح البيئة الإسلامية في قول الرسول ﷺ ((لا تروعوا المسلم فإن روعة المسلم ظلم عظيم)) (٦) وحينما روع عمر بن الخطاب يهوديا أغلظ إلى رسول الله ﷺ أمره النبي ﷺ أن يعطيه عشرين صاعا من تمر جزاء ما روعه (٧) .

---

(١) [الأنعام :١٥١] .

(٢) الترمذي .

(٣) المنافقون : ٨ .

(٤) الأحزاب : ٥٨ .

(٥) الطبراني .

(٦) البزار .

(٧) الطبراني .

ويقول ﷺ : ((**انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، قال أنصره مظلوما ، فكيف أنصره ظالما ؟ قال تحجزه عن ظلمه فذلك نصره**)) (١).

ومن أجل خلق بيئة سالمة نجد أن الشرع ينهي عن التجسس بكل وسائله وصوره صيانة لأسرار الناس وحفظا لكرامتهم وإبقاء على السكينة والطمأنينة وحسن الظن فيما بينهم ، قال تعالى : ﴿ **وَلاَ تَجَسَّسُواْ** ﴾ (٢) .

وقال ﷺ : ((**لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم ولا تطلبوا عوراتهم فإن من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته**)) (٣).

وبعد هذه البانوراما الشاملة والتي يلاحظ فيها مدى اهتمام الإسلام بالإنسان ، ولكن في عجالة سريعة نسوق ملما من ملامح أهل الذمة داخل نطاق البيئة الإسلامية وهنا نتذكر قول الرسول - ﷺ ((**من ظلم معاهدا أو انتقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة**)) (٤) وقال عليه الصلاة والسلام : ((**من آذى ذميا فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله**)) (٥) وحديث آخر يؤكد ذلك : ((**من آذى ذميا فأنا خصمه ومن كنت خصمه خاصمته يوم القيامة**)) (٦) .

وبذلك نجد أن الذميين (اليهود والنصارى) في بيئتنا الإسلامية -

---

(١) البخاري .

(٢) الحجرات :١٢ .

(٣) الترمذي .

(٤) أبو داود .

(٥) الطبراني بإسناد حسن .

(٦) الخطيب بإسناد حسن .

الحضارية – أنهم أصحاب حقوق ونحن لسنا أصحاب فضل .

ما شلالات الضوء هذه ، وكما يقولون في الضوء تستبين الأشياء ٠٠ في ضوء السماء ونورها ٠٠٠ في ضوء الإسلام وهدايته وعطاءاته المتعددة٠٠٠ وهو طبيعة الفطرة السليمة وخواص لانعكاس النفوس السوية التي لم ينخر فيه سوس الهوى وآفات الشيطان ووسواسه ٠٠ وأخطاء الذين ظلموا العلم بقولهم أن الإنسان حيوان طعام ، أو حيوان جنس ، وأن الإنسان هو الذي يصنع نفسه ويشكلها عن طريق القرارات التي يتخذها لنفسه بنفسه وأنه هو الذي يقنن ويشرع لنفسه ٠٠ ورأينا من خلال قصة الحضارة أنه كان انهيار للإنسان ذاته ، وأن حقيقة تنمية المواد البشرية ، هي العودة إلى الله والتماس شرعته ، وأن هذا النجاح هو التقدم الحقيقي ، وأن أي تقدم لا يسلم إلى مرضاة الله ويحقق قيام المجتمع الرباني – الحضاري – في الأرض ليس تقدما حقيقيا ٠٠ وليست كل مباهج الدنيا كالثروة والسلطان والمتعة إلا موضع حساب ، وفرحها فرح مؤقت بحياة الدنيا وهل تعتبر الظاهرة الفرعونية بأهراماتها ومعابدها ومقابرها كان تقدما بعد أن حاربت دعوة الله؟! . بل كان ذلك هو الخسران المبين .

ومن أجل تنمية مواد البيئة – والإنسان هو ركيزتها الأولى ومواجهة خطر الذوبان والاستلاب لمقدرات الأمة نختتم هذا المبحث بهذا القول الخالد للرسول ﷺ والذي بمثابة صنو لأي تقدم تنشده الأمة .

((المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍ خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز)) [١] .

---

(١) صحيح مسلم

قوة في العقيدة ··· قوة في شعلة الإيمان ··· قوة في الحق ··· قوة في الاقتصاد ··· قوة في العسكرية ··· قوة في التخيل والتصور ··· قوة في التخطيط ··· قوة في طبيعة الإنسان ذاته ··· وهذه القوة على مستوى المسئولية الفردية والجماعية .

وهل يبلور مظاهر هذه القوة ويفرزها ويبين معالمها ويرسم خطوطها ويوضح فواصلها ويزكي روحها إلا من هو أعلم بها وبطبيعة تكوينها - جلت قدرته - في كتابه المسطور - القرآن الكريم - وفي كل مظهر مظاهر هذه القوة نرى وحدة الله تتراءى في وحدة خلقه وقدرة الله وقوته تتراءى في بديع صنعه ، فهو - سبحانه وتعالى - نبع كل قوة أرضية وملهمها ومفجرها وموقظ غفوتها وباعث نهضتها وراسم إتجاه مسارها .

* * * * * * *

السلامة البيئية في مراقبة الله

الإسلام بطبيعته هو دين الجوهر ٠٠ هو دين الانبعاث الداخلي ٠٠٠ هو دين القلب وتجلياته ٠٠٠ هو دين الضمير بعيونه التي ترى ٠٠٠ ولذلك جميع شعائر الدين الإسلامي تتطلب ممن يمارسها ويؤدي حقوقها أن يستحضر نعمة النية وإخلاصها وسلامتها ٠٠ بل يرى البعض أن عدم استحضار النية يبطل العمل كما في القاعدة للشرعية ((النية الفاسدة تفسد العمل الصالح والنية الصالحة لا تصلح العمل الفاسد)) والإسلام بتراثه وفكره السمح الرفيع يحفل بكثير من الدلائل والقرائن التي لها دورها البارز في هذا الشأن .

ونحن نعلم أن عمار بن ياسر عندما اشتد به العذاب في بطحاء مكة على أيدي أهل الكفر والإلحاد وأظهر الكفر ، وحكى ذلك إلى الرسول ﷺ وهو يبكي – فسأله الرسول عن الداخل فبكي عمار بن ياسر بكاء شديدا يدل على أنه أكره على ذلك ٠٠٠ وكان رد الرسول ((إن عادوا فعد)) أي إن عادوا إلى تعذيبك فعد إلى إظهار الكفر مع حرمانيته٠٠ لأن الإسلام طبيعته الوقاية والسلامة وحفظ حرمات النوع الإنساني بعرضه ونفسه وماله ووطنه٠٠ومن أهم القواعد الفقهية أن الضرر يزال والأمور بمقاصدها ومراقبة الله التي تؤدي إلى السلامة البيئية عنوانها الإخلاص الذي يربط الإنسان بأحكام السماء .

ويقول الله تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ (١).

---

(١) البينة : ٥ .

وقال تعالى ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينِ ، أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ (١).

والإخلاص ومراقبة الله تؤدي بطبيعتها كما رأينا إلى إصلاح الداخل الذي يدفع الإنسان إلي رسالة الإصلاح والإعمار في الأرض وحفظ لكرامة الإنسان أصل هذه البيئة ، انظر إلى قول الله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِيَ أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيراً ﴾ (٢)

وهكذا نجد أن مراقبة الله ، تجعل المسلم يبحث عن البيئة السليمة كما بيناها من المنظور الإسلامي ولذلك لا عذر للمستضعفين أيا كانت درجات ضعفهم ، التي تمنعهم عن القيام برسالة الإصلاح والعمارة في الأرض التي هى عنوان البيئة السليمة المرتبطة بأحكام السماء ٠٠ وفي هذا السعي الدائب الذي تحركه شعيرة الإخلاص ومراقبة الله تكون السلامة البيئية والخير الوافر العميم ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً ﴾(٣) .

وفي الوقت ذاته هناك أعمال ظاهرها الصلاح ، إلا أنها مردودة على أصحابها ولا يمكن أن يكون لها دور فعال في قيام مظلة السلامة البيئية ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ (٤) .

---

(١) الزمر : ٢ ، ٣ .
(٢) النساء : ٩٧ .
(٣) النساء : ١٠٠ .
(٤) الكهف : ١٠٣ .

فماذا عسانا أن نطلق على هذا العمل؟ ‥ هل هو فساد ؟ هل هو تلوث؟ المهم أنه لم ينطلق من القاعدة الأساسية ٠ الإخلاص ٠٠٠ مراقبة الله٠٠٠ التي هي المحرك الطبيعي لقيام السلامة البيئية ‥ حتى الشعراء تنبهوا إلى هذا الخلل .

وهذا ما قاله ابن الحاج في كتابه المدخل :

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه	ولا بكاؤك إن غنى المغنونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب	ولا اختباط كأن قد صرت مجنونا
بل التصوف أن تصفو بلا كدر	وتتبع الحق والقرآن والدينا
وأن ترى خاشعا ٠٠٠ مكتئبا	على ذنوبك طول الدهر محزونا

وهذا كان أهم ما يميز الخليفة « عمر بن عبد العزيز » الذي كان لا يدعو الناس إلى شيء إلا أن يجده هو وأهل بيته على أرض الواقع ، بل إن أسباب الانهيار البيئي ، وتدمير مقومات المدنية ، قول الله تبارك وتعالى : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[1].

* ومراقبة الله تعالى تعالج الخلل النفسي الذي قد يتمكن أحيانا من الإنسان في فترات ضعفه ، وفي الفترات التي يتعرض فيها المجتمع لتقلبات الزمن وعوادي الأيام ، ومفاجآت الدهر ، والتي من شأنها خلخلة تركيبة المجتمع (قضية فلسطين – الأندلس – البوسنة – كوسوفا) ، وإذا تم ذلك – خفُوت مراقبة الله – ينهار أساس بنيان المدنية ، والحياة ، والإنسان حتى الغرب رغم سيطرة المادة عليهم أحسوا بهذا الخطر فهذا أستاذ الفلسفة بجامعة هارفارد يقول :

---

(١) البقرة : ٤٤

((إن أعظم علاج للقلق هو الإيمان)) وهل الإيمان مكانه إلا الداخل... القلب ... وهل يرسم جغرافية هذا الإيمان إلا من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ..

انظر إلى ما يقوله ((كار ينجي)) في كتابه ((دع القلق وابدأ الحياة)) على لسان والدته وهي تردد هذا القول داخل المنزل :

الآمان ، الآمان ... يا لروعة الآمان

إذ يسكبه في نفوسنا الرحيم الرحمن

إليك اللهم أدعو أن يحفظني بالأمان

فياضا غامرا يملأ القلب والجنان

ومن خلال هذه الرؤية من الشرق والغرب ، يتضح أن مراقبة الله قادرة على صياغة حياة قائمة على الضمير ... قائمة على الحق ... في تخاصم واضح مع النفاق وأمراضه ... وفي اتجاه عكسي مع الرياء وإدارته ... وفي تضاد مع أساليب التزلف بكل ألوانها المذمومة ... وليس في برنامج تعاملها أي مكان للمداهنة ... وللنظر إلى خطر هذه القضية في الفكر النبوي الشريف ، يقول الرسول ﷺ ((كتب الإحسان على كل شيء)) [1] ، يوضحه الرسول في حديث آخر ((الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وكان من ضمن رؤيته الشمولية والعالمية ، وليس مجرد تهويمات أو مسكنات تعالج ، جزءا من المرض دون معرفة الأصل وذلك بسبب جزيتها وقصورها هي أيضا ، حتى إذا نجحت تكون لفترة من الزمن وعلى جزء من المكان .. إلى أن يأتي المنظار العام لهذا الدين الذي قال فيه

---

(١) صحيح مسلم .

رب العالمين هذا القول الخالد المبين على مرحلتين : تراه فإنه يراك)) جزء من حديث جبريل المشهور ٠٠٠ نعم ، قضية الجوهر٠٠ الداخل ٠٠ ولا شك أن هذا يعطي بعدا وافرا من التعامل مع قضايا البيئة، ويقيم السعادة الحقيقية التي لا توجد في المال ، ولا الجاه ، ولا الشهرة ، ولا السلطان ولا كل مظاهر الدنيا الزائفة إذا ابتعدت عن حظيرة الإيمان وهديه .

ومن أجمل ما قاله أحد الغربيين في هذا الشأن يقول مبينا المحرك الأساسي لسعادته قوله : ((لست سعيدا لأنني أتدفأ ولكن لأني سعيد أتدفأ)) ويا ترى ما هو الذي يفجر ينبوع السعادة في النفوس ؟ أليس الله ؟ ((أليس الله بكاف عبده))؟ ٠٠ ومن يقذف هذه النسمات الرقيقة إلى داخل النفوس : ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ السكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوَاْ إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ (١).

صدقت يا إلهي فيما قلت ٠٠

ولذلك لا غرابة أنه عندما تنقطع عن الإنسان لحظة التجلي ، التي يفرزها نور الإيمان الداخلي يصبح الإنسان كريشة هيفاء في مهب ريح عاصفة عاتية ٠ وتكون حلقة مؤدية إلى تعرض السلامة البيئية للخطر .

* * * * * * * *

---

(١) الفتح : ٤ .

ضحايا فقر مراقبة الله

إذا نظرنا إلى الإنسان على أنه العنصر الأساسي لملامح البيئة التي ننشدها .. نجد أن الفقر الإيماني يجعل الإنسان عرضة إلى هذا الفقر البيئي... وهذا شعر من أشعار متعبد يعكس طبيعة هذا الفقر البيئي - الإيمان ومراقبة الله - على طبيعة تكوينه الداخلي فيقول :

لعمرك ما أدري وقد أذن البلى   بعاجل ترحالي-إلى أين ترحالي؟
وأين الروح بعد خروجه   عن الهيكل المنحل والجسد الغاني؟

تردد واضح ... وتصادم مخزي .. وتشتت مؤلم وزعزعة مؤلمة... فقد الإنسان فيها ذاته وأمانه .. ولذلك لا غرابة أن يصحح هذا الانهيار البيئي من يرد عليه بقوله :﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ (١) .

يظهر فيه البعد الروحي ، وما فعلته المظلة الإيمانية ، بمن اكتنف بظلها، وهذا الظل الرباني وبيئته الراغدة تجعل من يمشي في روابيها الخضراء يقارع الأهوال ، ويركب الصعاب ويهزم الشدائد بقلب لا يلين وعريكة لا تعرف اليأس طريق إلى مفردات تكوينها ، ولِمَ لا ؟ وهو قد أوى إلى ركن شديد مكين بمن بيديه ملكوت السماوات والأرض ، على عكس من أصبح التردد صفة في تكوين قراراتهم لا يستمرون على فكرة يطرحونها ، ولا يداومون على وجهة يرضونها كريشة في مهب الريح طائرة لا تستقر على حال من القلق وفي هذا إيضاح للفقر البيئي في

---

(١) الانفطار : ١٣ ،١٤ .

مراقبة الله التي هي الـدافع لأن الإنسان هو محور نقطة ارتكازها ٠٠٠ وحجر الزاوية التي من أجلها خلق الله هذا الكون ، ولا يحدث هذا الانسجام والتناغم إلا بهذه الخاصية - الإخلاص - والإحساس بمعيته سبحانه ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١) .

أي جهاز رصد هذا ٠٠٠ جهاز رصد قوته وكثافته وسعها السماء والأرض جزء منها !!

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٢) .

بالله عليكم إذا كانت هذه معية الواحد القادر القدير فمن يكون عليه؟٠٠٠ معية له شلالات من الضوء ونور تنعكس على ذلك من سلامة بيئية تنمو في ظلها وتزدهر كل أنواع المدنية ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٣) .

هكذا كان سبب الازدهار البيئي الأول لموسى عليه السلام المفتوحة برئتها الربانية ، انظر إلى ما قاله خاتم الرسل وهو يحارب الفساد - التلوث البيئي - الجاهلية - عندما قال لأبي بكر في الغار :

﴿ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (٤) .

وتنعكس هذه المنحة - المعية - تجعل العبد الصالح يقول :

إن قلبا أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج

وصحبك المأمول صحبتنا يوم يأتي الناس بالحجج

---

(١) البقرة : ١١٥ .

(٢) الحديد : ٤ .

(٣) الشعراء : ٦٢ .

(٤) التوبة : ٤٠ .

نعم قوة خافية ضاربة ، تفجر الطاقات ، وترشد العزمات ، إبرة ممغنطة اتجاهاتها وقبلتها دائما إلى السلامة البيئية ، هذه القوة ، الكاشفة الهادية الآمرة الناهية ، المحذرة المحرضة ، الحاكمة المنفذة هي التي استودعها الله في النفوس في الصدور هي مراقبة الله ٠٠٠ هي الإخلاص٠٠٠ هي الضمير (هي الوحدانية) بصفائه وارتقائه كما يسميه علماء الأخلاق٠

* * * * * * * * *

مراقبة الله هي البر بكل شموليته

رأينا كيف يؤدي الفقر البيئي لهذا العطاء - مراقبة الله - إلى التدهور البيئي ، ويجعلها ((بيئة فقر)) ، ومراقبة الله هي البر بأوسع معانيه ، ونبع عطاياه ، ونبل مقاصده ، انظر إلى هذه الرؤية الواسعة :

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [1] .

هذه هي شلالات البر .. تكافل .. حب .. تراحم .. أمانة .. صدق .. إخلاص .. عهد وميثاق .. ما أجمل خيمة البر ورصيدها وشجرتها المثمرة هذه بصدقها وتقواها وظلالها الوارفة من كل وجوه الخير وضروب المدينة الفاضلة في أكثر تصور وتخيل لما يجب أن تكون عليه طبيعة المجتمع .. المجتمع الواحد .. الجسد الواحد .

* ولكن !! ما علاقة هذا البر بمراقبة الله ، وبالإخلاص ؟ هذا ما أوضحه سيد الخلق أجمعين ، يقول ﷺ : ((**البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب وإن أفتاك**)). فكلها حلقات متشابهة يوصلها إلي بعض ، والمدخل إلى النور الداخل - القلب - الذي يحرك طبيعة البشرية على مدى التاريخ، بقوته الخيرة

---

(١) البقرة : ١٧٧ .

توجه طبيعة العمل ، فتسبقه بالإرشاد عمل الواجب ، والتحذير من المعصية التي هى أقصي وأشد درجات التلوث ، وصدق الشاعر عندما فضح القانون وعراه ٠٠ رغم أهميته :

لن يصلح القانون فينا رادعا حتى نكون ذوي ضمائر تردع

ويدعو شاعر آخر إلى الداخل -- مراقبة الله -

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ، ولكن قل : علي رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب

*****

لطائف المراقبة الآلهية على السلامة البيئية

أخيرا ، ما دور هذا العطاء الرباني - مراقبة الله على مظاهر السلامة البيئية ؟ نجد أنها _ أي مراقبة الله - تصيغ طبيعة المجتمع من جديد على أساس الطهر والنقاء والصفاء والارتقاء ٠٠٠ انظر إلى مجتمع السلامة البيئية - مجتمع الفضيلة - وليس أدق ما يعبر عن هذا الموضوع قصة ماعز ابن مالك عندما أتى الرسول ﷺ ويقول : ظلمت نفسي وزنيت ، وإني أريد أن تطهرني ، فيقول له:

لعلك لامست ، لعلك قبلت ، لعلك فاخذت . . . ويرد الرجل مرة ومرة ومرة والرجل مصر على الاعتراف بخطيئته ، مصر على التطهر منها بإقامة حد الله عليه ولو كان الرجم بالحجر ويأمر الرسول أخيرا بإقامة الحد عليه ، فيتقبله صابرا محتسبا ، راغبا في عفو الله ومغفرته يقارن ظاهرة الزواج العرفي وفقد كثير من الفتيات لعذريتهن .

* وكيف أن المنحة - مراقبة الله - تمنع تلوث المجتمع من ظاهرة الغش التي هى من أهم أسباب تقويض السلامة البيئية وانهيارها وتؤدي إلى الفقر البيئي السريع ، عندما أصدر عمر بن الخطاب قانونا يمنع غش اللبن وعدم خلطه بالماء ٠٠٠ وهذا في الواقع ليس غشا لتركيب اللبن ولكنه غش للسلامة البيئية وأسس مقوماتها ألا وهي الأخلاق والصدق في أقصى درجاته، وكما بين الشاعر أن عين القانون لا تستطيع أن تشمل الجميع ، ولكن انظر إلى هذه البوصلة الربانية في هذه القضية بلطائفها الموحية ،

وعطاءاتها الإلهية ، ورقائقها السماوية في شمولها واتساعها وهي في الواقع منة كبرى ، ومنحة عظمى ، ومنة الإيمان الذي يؤدي فماذا عن هذه القصة؟ الأم تريد أن تخلط اللبن طمعا في زيادة الربح ..

والبنت تذكرها بمنع أمير المؤمنين

* الأم بجشعها تقول : أين نحن من أمير المؤمنين ؟! إنه لا يرانا .

* ترد الابنة بنبرة الإيمان : إن كان أمير المؤمنين لا يرانا فرب أمير المؤمنين يرانا !!

** وملمح آخر من ملامح مجتمع السلامة البيئية الأولى يبين كيف صاغ الإسلام هذا المجتمع ومجاله الرحب الذي حارب التلوث بكل أنواعه ومسمياته ، فقد قال عبد الله بن دينار:خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة فعرشنا في بعض الطريق فانحدر بنا راع من الجبل، فقال له :

يا راعي ، بعني شاة من هذه الغنم .

* فقال : إني مملوك .

* فقال – اختبارا له – قل لسيدك : أكلها الذئب .

* فقال الراعي : فأين الله؟! فبكى عمر رضي الله عنه ثم غدا مع المملوك ، فاشتراه من مولاه وأعتقه ، وقال : –

أعتقتك في هذه الدنيا كلمة ، وأرجو أن تعتقك في الآخرة .

أجل هذه هي – مراقبة الله – التي صبغت هذا المجتمع الأول بحلقاته التاريخية المتتابعة بصبغة السلامة البيئية ومن أحسن من الله صبغة ، وكيف أدت إلى تنمية موارد البيئة في أحسن صورها ، وأبهى مناظرها ، وأجلى حللها ، من رعاية للحقوق ، وحفظ للأمانات ، ومراعاة للمواثيق والعهود ،

وصدق في المعاملات ، وإخلاص للنيات وما يترتب عليها من أعمال والتزامات ، إلى أن امتدت بظلها وظلالها الوافرة الوارفة إلى شئون الحكم وأمور السياسة ٠

وهذا يتضح إذا تتبعنا إحصاء الجريمة في المجتمع الغربي الذي يتشدق بالديمقراطية وسيادة القانون ؛ لأن الذي يدير هذا المجتمع بترسانته التكنولوجية هي الآن أشبه بمن ملكوا ناصيتها وتحكموا في إتقانها إلا أنه ليس لها قلب تنبض به وإحساس تشعر به فإن كانت هناك حضارة !! فهي حضارة الانهيار والتلوث وجنون البقر ، والتفاح المسرطن ، والحرب النووية ، والتطهير العرقي والعنصري، فهي ليست حضارية ولكنها أرضية ، انظر إلى قول مؤمن آل فرعون عندما قال لقومه : ﴿ يَاقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ ﴾ [1] .

وما أجمل أن نختم هذا المبحث بقول أستاذ البشرية ومعلمها الأول الرسول ﷺ :

عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه** » [2] نعم كانت هذه نيات البر ، والعطاء ، والخير ، والحسن ، والجمال ، فاللهم أصلح سرائرنا من أجل سلامة بيئتنا ٠٠٠

---

(١) غافر : ٢٩ .

(٢) البخاري ومسلم .

الإسلام والعمارة الأرضية

دعوة الإسلام إلى عمارة الأرض،وبث روح الحياة فيها،لتنبت بإذن ربها كل ما هو طيب وجميل وبهيج أمر دعا إليه الإسلام، وحض عليه، بل هو ضرورة من ضرورات هذا الدين، حتى أن معظم الشعائر الإسلامية نجد أنها تتطلب مجالات واسعة من العمل من أجل أدائها، فمثلا فريضة الزكاة والتي بواسطتها تشيع روح الود والإخاء والتراحم والتكافل في أبهى صورها فهل يتم إخراج نصاب هذه الزكاة إلا من يمتلك نصابها ؟ وهل يتم ذلك إلا عن طريق العمل المثمر الجاد ؟ وقل ذلك على الحج وما يلزمه من نفقات ؛ لذلك لو تم إحصاء كلمة العمل ومفرداتها في القرآن الكريم لاستطاع الإنسان أن يقوم بعمل موسوعة عن العمل في القرآن والذي انعكس على طبيعة المجتمع الإسلامي عبر حلقات تاريخه الناصعة البياض، وكيف أمر الرسول ﷺ ذلك الأعرابي أن يشتري قدوما ويخرج إلى فجاج الأرض الواسعة يحتطب بل يأمره الرسول ﷺ أن لا يراه لمدة خمسة عشر يوما رجع بعدها هذا الأعرابي بعد أن وسع الله عليه من خيرات كفته السؤال ومذلته، ثم إنّ المولى عز وجل،هو الذي أرسى هذه القاعدة البيئية الجليلة قاعدة الاستعمار في الأرض وإحيائها﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[1] .

ما أجمل هذه النشأة التي تؤدي إلى عمارة الأرض بقيم ومعايير الحق ، والبر ، والتقوى ... تؤدي إلى ربط الأرض بعمارة قيم السماء ... وهي إن كانت عمارة للأرض من جنات وأنهار ، وقصور ، ودور ، إلا أن

(١) هود : ٦١ .

العمارة الأولى وملامحها هي عمارة النفوس ، والقلوب ، والضمائر عمارة الخيال الذي ينعكس على أرض الواقع لينتج لنا هذه البانوراما الخضراء التي نتنفس بها ٠٠٠ خضرة الإيمان ٠٠ وأريجها الفواح وعطرها الشذا المنعش٠٠٠حتى ولو قلت خضرة اليابسة بلحائها الصماء رغم ما فيها من بلاستيدات خضراء وكلوروفيل ، وحياة هادرة فالقلوب البيضاء هي أساس الرؤية الخضراء .

ولذلك هذه العمارة والإحياء للأرض – بهذا المفهوم البيئي الإسلامي– عمارة يكتب لها التقدم والبقاء والارتقاء لأن قيام هذه العمارة مستمد من مبعثها وموقظها — المولى جلت قدرته – وشريعتها الربانية ، التي تكفل لها البعد والسعادة الروحية قبل الرتوش المادية بوطأتها الثقيلة ، التي تؤدي إلى التمسك بالأرضية وشهواتها الدنيئة ولعل من أرعب ما يصور القوة المادية، ويشمل الكثير من القوة الروحية قول الله تعالى :-

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ، قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ، الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ، الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ (١)

وهنا عندما يدفع الإسلام المسلم إلى العمل وإحياء الأرض ؛ لأن

(١) آل عمران : ١٤- ١٧ .

المسلم يرى أن الإيمان الصادق ليس مجرد إدراك ذهني أو تصديق قلبي غير متبوع بأثر عملي في الحياة والإسلام يرى أن العمل جزء من الإيمان ، وذلك ما ورد من الأثر « **ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل** » (١) .

ولذلك لا غرابة أن تكون قضية الإيمان في القرآن الكريم دائما مقرونا بالعمل وكذلك المؤمن الحق يوقن أن السعادة في الآخرة والفلاح والنجاح في الأولى موقوف على العمل وعمارة الأرض وإحيائها ﴿ **أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ (٢) .

ثم إن طبيعة العمل الذي ينعكس من الإنسان المؤمن هو عمل وإن كان على بيئة الأرض فهو انعكاس بشروط السماء ومن هنا يكون العمل وعطاؤه قوة دفع في السلام البيئي لأنه (أي العمل) له ضوابط شرعية تحكمه وتسيره وهنا يبين ذلك الحديث النبوي الشريف :

« **إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه** » (٣)

ثم إن الرقابة على طبيعة هذا العمل الذي يعززه المسلم ، إدارتها وإشرافها والقائم عليها ، الله جلت قدرته والرسول عظمت منزلته والمؤمنون رضوان الله عليهم

﴿ **وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ**

---

(١) رواه أبو البخار والديلمي في مسند الفردوس .

(٢) الأعراف : ٤٣ .

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان .

الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

هذه هي طبيعة العمل ودوره في بث روح الحياة وتيارها الدافق الذي ينعم بها الجميع ٠٠ فالأرض هنا تكون مسرحاً شاملاً ومفتوحاً لأحكام نور السماء وعطائها المتجدد مع كل دورات الحياة على مساحة الزمان والمكان وهي نفسها طبيعة هذا الدين وأفضل رؤية عن . العمل أن عمر بن الخطاب رأى قوما قابعين في ركن من المسجد بعد صلاة الجمعة فسألهم : من أنتم ؟ فقالوا : نحن المتوكلون على الله .

وهنا يصلاهم عمر بدرته ونهرهم وقال : لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقني وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة وأن الله يقول : ((**فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله**)) نعم هذا عن يوم الجمعة ، عيد المسلمون الأسبوعي ، وحجتهم أنهم المتوكلون ، وهذا يذكرنا أيضا بروح التوكل الصحيح الذي بينه الرسول ((لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا)) ولذلك عالج الرسول هذا التلوث — التواكل — لدرجة أنه ﷺ أنكر على الأعرابي ترك ناقته خارج المسجد بحجة أنه متوكل فيقول له الرسول : ((اعقلها وتوكل)) حياة كلها قائمة على الفطنة والذكاء ٠٠ على العمل والإخلاص لا رهبانية رفضها الرسول في كل صورها عندما حاول الرهط أن بعضهم لن يتزوج ، وبعضهم لن ينام ، وبعضهم لن يفطر فرفض الرسول ﷺ هذا الشطط رغم أن النية الدافعة له خير ٠٠ إلا أنه يقوض مسيرة وطبيعة

---

(١) التوبة : ١٠٥ .

المجتمع ، ومتطلباته وفي فعلهم هذا تيار معاكس لطبيعة عمارة الأرض وإحيائها ٠٠ وهذا في الوقت ذاته يدل على أن النقص صفة بشرية كما أوضح ذلك ابن الرومي :

أعيرتني بالنقص؟ والنقص شامل ومن ذا الذي يعطي الكمال فيكمل؟
وأشهد أني ناقص غير أنني إذا قيس بي قوم كثير تقللوا
تفاضل هذا الخلق بالفضل والحجا ففي أيما هذين أنت مفضل
ولو منح الله الكمال ابن آدم لخلده والله ما شاء يفعل

ومن هنا يجب أن يعتقد المسلم أن الدنيا مزرعة للآخرة ، وبها ننعم بالفواكه والياسمين والحور العين ، وأجمل ما قاله محمود الوراق في هذا الشأن :

لا تتبع الدنيا وأيامها ذما وإن دارت الدائرة من شرف الدنيا ومن فضله أن بها تستدرك الآخرة وهذا أهم ما يميز البيئة الإسلامية ، والعمل الإسلامي أنه دائما مندفع من الدين وأحكامه ، وصدق سعيد بن ، حميد عندما قال :

ما صحة أبدا بنافعة حتى يصح الدين والخلق

ولاشك بأن ذلك كله يؤدي إلى عمارة البلدان باعتماد مصالحها وتهذيب سبلها ومسالكها وانظر إلى جانب من العمارة الأرضية ، إلا أنها لم تنعم بمظلة السماء ، والأرضية الفرعونية ، بأهرامها ومعابدها ، وكيف كل ذلك وجد طريقة إلى الانهيار والاندثار وذلك على لسان مؤمن آل فرعون :-

﴿ يَاقَوم لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلاَّ مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ، وَقَالَ

الذِيَ آمَنَ يَقَوْمِ إِنّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مّثْلَ يَوْمِ الأحْزَابِ ، مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لّلْعِبَادِ ، وَيَقَوْمِ إِنّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التّنَادِ ، يَوْمَ تُوَلّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (١)

ماذا عن هذه النهاية المؤسفة لهذا السيناريو المتناغم والمنسجم مع المقدمات ؟ هل هذه كانت عمارة ؟، وإذا كانت عمارة فبئس العمارة ، عمارة الذل والعار والشنار عندما تبعد عن منهج الله الذي هو مقوم من مقوم عمارتها ، بل الأكثر من ذلك كيف يا ترى ستكون عمارتهم في الآخرة ، الله سبحانه وتعالى ، هو الذي حدد معالمها وبين سبلها وخاتمتها.

يقول تعالى : ﴿ النّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ أَدْخِلُوَاْ آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدّ الْعَذَابِ ﴾ (٢) .

اندثار بيئي في أقصى ما يمكن أن يتصوره الإنسان ، عندما يسيطر التلوث البيئي الذي هو نقمة من الله عندما لا تراعي القواعد الحقيقية لعمارة الأرض وإحيائها بمظلة الخير والنماء والتي يمتد جودها للإنسان والطير والحيوان والجماد ، عمارة كاملة لكل مفردات الكون ...

إحياء شامل للنفوس والقلوب وطين الأرض ... بعث كامل لعمارة الجسد الواحد ، كالحقل المزروع بالفل والياسمين تسيطر عليه درجات نمو متقاربة ، ويخرج منها شذا فواح تلمسه رائحة الأنف الذكية انظر إلى هذا

(١) غافر : ٢٩ ، ٣٣ .
(٢) غافر : ٤٦

النوع الآخر من العمارة ، والتي تقضي على تلوث الغل ، والحقد ، والحسد، وتنبت زهرة ((الآس)) أو ((الأتروجة)) ذات الطعم الطيب والرائحة الطيبة، ماذا عساها أن تكون هذه العمارة ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

((من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ، ما كان العبد في عون أخيه ، ومن سلك طريقا يلتمس فيها علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة وحفت بهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن أبطأ به عمله ، لم يسرع به نسبه)) [1] .

الله أكبر ٠٠٠ ولله الحمد ٠٠٠ على هذه الإشراقات النبوية لهذا العمل٠٠٠ وهذا الإحياء ٠٠٠ وهذا الكوكتيل البيئي الذي أحوج ما تكون البشرية إليه ٠٠ من أبطأ به عمله ، لم يسرع به نسبه ، وصدق الشاعر عندما قال ، يقلل من حدة هذا التلوث العفن ٠٠ الذي يعتمد على النسب فيقف عن مسيرة العطاء والعمل :

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه ... فلا تترك التقوى اتكالا على النسب
لقد رفع الإسلام سلمان فارس ... وقد وضع الشرك النسيب أبا لهب

صدقت يا رسول الله عندما علمتنا العمل على إحياء الأخوة ، والتكافل **((أيما مؤمن أطعم مؤمنا على جوع أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنة،**

---

(١) رواه مسلم .

وأيما مؤمن كسا مؤمنا على عري كساه الله من خضر الجنة » [١] .

وهنا تظهر القاعدة الجليلة في فقهنا الإسلامي « الجزاء من جنس العمل » .

وصدق الله العلي العظيم عندما قال : ﴿ فَمَن يَعمَل مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرَهُ ، وَمَن يَعمَل مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [٢] .

ولكن أليس عمارة بهذا العطاء وهذا التخطيط ، وهذه المسئولية الفردية والجماعية من أجل إحيائها وعمارتها تحتاج إلى صبر جميل وجهد دؤوب وعمل متواصل ؟، والصبر نصف الإيمان وهنا يقرر الله هذه الحقيقة بقوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً ﴾ [٣] .

ولله در القائل :

إن الأمور إذا اشتدت مسالكها ... فالصبر يفتح منها كل ما ارتجا

لا تيأس وإن طالت مطالبه ... إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ... ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

ولكن قبل أن نختم هذا البحث يجب أن نبين أن هناك عمارة أخرى وأحياء آخر والعمل فيه يعتمد على الكلمة الطيبة بظلالها الوارفة وأصلها الثابت وعطائها المتجدد كل حين ، وهذا العمل - بذور الكلمة الطيبة - غالبا ما يكون هو الموجه للسياسات والقرارات ويفرز المسرحيات والأدب

---

(١) أخرجه الترمذي .

(٢) الزلزلة : ٧ ، ٨ .

(٣) الفرقان : ٧٥ .

والروايات ، ولكن إذا لم تراعَ الضوابط الشرعية لعملية العمارة هذه الكلمة الطيبة تحولت هذه الكلمة إلى إعصار مدمر ويجعلها كالشجرة العديمة الجذور ، خبيثة في ثمارها مؤذية في رائحتها ، وخطرها يكون أخطر من ثقب الأوزون ، ودخان المصانع ، والذي يكون إنتاجه البلاستيك ؟!

ولذلك لا غرابة أن يكون هذا هو الجزاء المناسب لمجرد تمني شيوع الفاحشة ، وهل شيوع الفاحشة ، بتداعياتها إلا مظهر من مظاهر انقراض لأسباب المدنية ، وهو أشد ضراوة من الفساد بمخالبه السوداء ؟.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [1].

لأنه الكلمة الشريرة الخبيثة أنكى من دروع المدافع ، بل تتضح هذه القضية إذا علمنا أن الحرب العالمية الثانية وأكلها لكل مظاهر التقدم من حرث ونسل كان سببه ((الإعلام الفاسد)) وهنا يبين الرسول في حديث شامل جامع لعمارة الأرض في أرقى صورها ، والكلمة الطيبة محور من محاور هذا الحديث ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ :

((كل سلامي من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة والكلمة الطيبة صدقة ، وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة [2])) .

ما شاء الله ... ولا حول ولا قوة إلا بالله ... لهذا الديكور المعماري المميز بألوانه الزاهية الصافية ، وتركيباتها ونسبها التي أفرزت

---

(١) النور : ١٩١ .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

هذه العمارة الجميلة التي تعانق السحاب بمبادئها ولم تكن في يوم من الأيام ناطحات سحاب ، فالنطح صفة من صفات الحيوان ... العبد لله يرى أن هذه المبادئ هي ذاتها بمثابة مآذن تعانق السماء بفضائلها وشمائلها .

نعم ، هذه هي طبيعة المسلم داخل هذه العمارة الجميلة التي بين ألوان أطيافها ورسم خيوطها وصمم مقياسها وقام بوضع أساسها ولمسات إنهائها المولى عز وجل ، وبين طريقة دخولها وأقسامها وردهاتها والمصطفى ﷺ وهذا ما يمكن أن يفرزه الإنسان كما قال بعض الفصحاء : اعقل لسانك إلا عن حق توضحه ، أو باطل تدحضه ، أو حكمة تنشرها ، أو نعمة تذكرها ، وهذا ما أوصى به الشاعر أيضا : -

رأيت العز في أدب وعقل ... وفي الجهل المذلة والهوان
وما حسن الرجال لهم بحسن ... إذا لم يسعد الحسن البيان
كفى بالمرء عيبا أن تراه ... له وجه وليس له لسان

ولكن لا بأس أن نعثر الزهور والرياحين بخاتمة هذا البحث وهو مبدأ نبوي أصيل ، ونحن ملزمون به ، يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت في هذا اليوم العصيب الذي تشيب منه الولدان ، في هذا اليوم الذي تبعثر فيه القبور وتسجر فيه البحار ، حتى الجبال بأوتادها وتحولها إلى العهن المنفوش ، هذا اليوم يوم القيامة وهذا هو طبيعة ، وصوره القرآن في مواضع كثيرة نجد أن الرسول - عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم - يجعل هذا اليوم وهو آخر وداع لعمارة الدنيا واستقبال الآخرة ، أن يكون وداع تعمير ، وتشجير ، وهذا يذكرنا بقوله ﷺ: ((من أصلح أرضا بوراً فهي له)) .

ولكن كيف ذلك في هذا اليوم — يوم قيام الساعة نعم الرسول عليه ﷺ يعلمنا الإحياء والعمارة في أقصي صورها والاستمرارية في أقصى خطوطها لكي نستقبل الحدائق والأعناب والجنات والعيون ، ولم لا ؟ أليست القاعدة الشرعية — الحضارية « إن الجزاء من جنس العمل » صدقت يا سيدي يا رسول الله عندما أمرتنا أن نتبع هذا المبدأ لهذا اليوم العصيب لنتبين أن الإسلام هو دين التعمير ، وهو دين الخضرة :

« إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها » (١) .

اللهم اجعل من نصيبنا أن نغرس نخلة قبل أن نلقاك يارب العالمين... فنحن على تقصيرنا– ندعوك كما علمتنا فاستجب لنا كما علمتنا ... اللهم آمين ..

* * * * * * * *

وهنا وليعلم الجميع من خلال الدورات المدنية من قوم نوح وعاد وثمود وممن أتوا بعدهم من فرعونية وبابلية وفارسية ورومانية وغيرها من فلسفات مادية حتى سيطرت الحضارة - الإسلام - وكان الصعود لهذه الحضارة - الإسلام - بصعود القرآن في واقع الحياة والهبوط بإبعاد القرآن عن مسرح الحياة - والأمل قائم ثم بعد ذلك نرى انتصار مدنيات ارتفعت إلى عنان السماء ولكنها ذهبت إلى متاحف التاريخ ؛ لأن الارتفاع كان ليس له أساس يقويه وينميه ويكتب له التقدم والبقاء فأين الازدواجية في مرحلة المدنية

---

(١) رواه أحمد والبخاري .

الأسبانية والبرتغالية ومن بعدها إنجلترا وفرنسا حتى الوقت الحاضر؟ عاصرنا سقوط أحد عناصر هذه الازدواجية وهو الاتحاد السوفيتي ، ولم يبق من هذه الازدواجية السريعة عبر التاريخ غير الفرعنة الأمريكية ومن كان يعبد أمريكا فإن أمريكا قد ماتت والإحصاءات البيانية على ذلك يعلمها أهل الاختصاص من الجنس والجريمة والاقتصاد والإعلام والسياسة.. ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

* * * * * * * *

الإسلام وعطاياه لصور الحياة

أولا :- رعاية الإسلام للثروة الحيوانية

«البيئة الحيوانية»

الإسلام كنظام شامل لكل جوانب الحياة لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وبينها ، ووضع لها من الحلول والضوابط ما يسيرها ويناسبها ، فصدق عمر بن الخطاب بمقولته : « والله لو سألتم عن عقال بعير لوجدتموه في القرآن » فالقرآن منظومة نظام جامعة لكل مناحي الحياة ، أيا كانت هذه المناحي ، تصور شامل شمولي لجميع قضايا الكون والحياة بل وما وراء الحياة ذاتها « فيما وراء الطبيعة » ما يدب على الأرض وما يعرج في السماء ولذلك لا غرابة أن نجد أن الإسلام بهذه الشمولية أن تكون « البيئة الحيوانية» لها ما يناسبها ••• وبخاصة أن حياة الإنسان وغذاءه من مأكل ومشرب قائمة على هذه البيئة ، التي أولاها الإسلام رعايته ، وقبل أن يهتم العلم الحديث بالحيوان وبيئته ويخصص له الدراسات المستقلة والمعاهد ، ونجد أن القرآن يسبقه بأربعة عشر قرنا ، بالدعوة إلى دراسة بيئته ، والعبرة من قصة خلقه وطبيعته ، ومتابعته ومراقبته للوقوف على بعض أسرار معيشته••• وتتضح الرؤية الإسلامية لهذه البيئة عندما نعلم أن القرآن الكريم أطلق بعض أسماء حيوانات هذه البيئة :

كسورة البقرة ، والأنعام ، والنحل ، والنمل ، والعنكبوت ، والعلق ، العاديات ، والفيل •••

ومن خلال كل هذه يقرر القرآن حقائق عن معالم هذه البيئة الحيوانية لا

تقل في الدقة والأهمية عن الحقائق الكونية ، وظلت بعض هذه الحقـائق لغزا حتى كشف عنها الستار العلم الحديث ومـا زال بعضهـا إعجـازا يختص بـه القرآن ••• بل كان هناك من الصحابـة مـن هـم مبشـرون بالجنـة ، نجـد أن هناك دواب عشرة فضلها الله ولها مكانها في الجنة وهي :

• بغلة سليمان • هدهد بلقيس • بقرة بني إسرائيل • غراب ابني آدم
• ناقة صالح • كلب أهل الكهف • حية موسى • ذئب يوسف
• حوت يونس • براق محمد ﷺ .

ولذلك نجد أن الآيات القرآنية التي وردت في باب الإنسان والحياة تطرقت إلى النبات والحيوان من حيث مـادة الخلق ((التراب))، ((والماء)) في ((كل شيء حي)) بالإضافة إلى اشتراكها العام في طبيعة دورة الحياة ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ﴾ [1]

ولكن لا بأس – بفضل الله وتوفيقه – أن نتابع في إيضاحنا لرعاية الإسلام للثروة الحيوانية وبيئتهـا وأن نسوق هذه المنظومة التي تكون إلى العقل أقرب ، وإلى المنطق أشمل ، وإلى الكون محتوية فهذه هى طبيعة ديننا الحنيف ، أنه لا تصادم بين العقل والدين بل على العكس إنه كلما يزداد العلم تقنية يزداد الإيمان بما جاء في القرآن مـن حقـائق علميـة ولذلك في سردي لكل بيئة سأقوم– بفضل الله – في الجمع بين وجودها المحسوس في كتاب الله المنظور – الكون – وسنجد في النهاية هذه السيمفونية بلمستها الجميلة، ولحنها الفريد وأنه لا تصادم فديننا لا يعرف ((كوبرنيقـوس)) و((جـاليليو))

---

(١) يس : ٣٦ .

إلا عالمين جليلين ، وكان الدين وعقيدتهم سبب رئيسي في حرقهما لأنهما أظهرا ما ينافي طبيعة دينهما ، وما أظهراه كان حق وثورة في العلم ، ولنبدأ وتراً من هذه السيمفونية لبيئتنا الحيوانية .

*** البيئة الحيوانية في كتاب الله المنظور — الكون :**

انظر إلى الحيوان فهو عالم مثير وغريب في كونه المسلم المترامي الأطراف ، وبيئتنا الحيوانية هي بيئة مسلمة تسبح وتوحد وترفرف في كون خالقها وباريها .

*** منطق الطير :** ربما لا نعلم عن ذلك إلا الزقزقة والشقشقة وهديل الحمام ، وعواء الذئب ، وصهيل الحصان ، ومواء الهرة ، ٠٠٠٠٠٠ من هذه البيئة ، ولكن هل للطير منطق –لا أقصد هل له لغة يتفاهم بها ، وإذا كانت حدة الصوت في البشر قد تدل على معنى زائد عن اللفظ ، إلا أننا نجد علماء الطير قد سجلوا ذبذبات صوتية بنبراتها المختلفة لطيور متباينة وكان بعضها يعتبر بمثابة الإنذار ٠٠ والبعض الآخر للإرهاب ٠٠٠ وثالثهما لتلاقي الجنسين .

*** الدفاع الحيواني :**

لا يقتصر التأقلم في الحشرات على قدرتها الفسيولوجية وتغلبها على ماقد يعترضها في بيئتها من قسوة الطبيعة بل يمتد إلى ما منحها الله به من وسائل دفاعية أو خداعية متباينة لحمايتها من الأعداء ٠٠٠ وانظر إلى هذا العالم المثير ، فهناك طيور تكون أجنحتها كأوراق وأغصان الأشجار التي في بيئتها ، وبذا يختلط على العد وتمييزها من النباتات التي نقف عليها

ويحسبها الجاهل نتوء في النبات .

وبعضها تظهر أجنحتها كأنها عيون بومة شرسة مفترسة لدرجة أن من ينظر إليها ربما يشعر بالفزع والهلع فيتجنبها ولا يقترب منها ...

وأكثرها شيوعا اللدغ كما يحدث في النحل والزنابير ، وهنا يذكرنا بالأغنية ذات الفلكلور الشعبي (دبور لدغني من الشباك ما فتحتش الشباك تاني) ! ذكاء واضح من الإنسان طبعا

وإن كان البعض يصدر أصواتا للتحذير إلا أن بعضها يلجأ إلى الشرانق للحماية فهل ذلك بسبب الانطوائية أو نوبات اكتئابية ؟! وبذلك نجد أن تلك تشكيلة مختلفة من صور الدفاع عن نفسها وانتشارها وتكاثرها ..

الافتراس الحيواني :

سبحان الله ، أن تقدم الحشرات بوسائل تقيها قسوة الظروف البيئية المحيطة بها ، واتقاء الافتراس من الكائنات الأخرى ، ولذلك نحن نعلم أن هناك نوعا يعرف بالحشرات المفترسة وتقوم على التهام الكائنات الأخرى وما يطلق عليه علماء الحشرات «ظاهرة افتراس ذات الجنس» وإن كانت تظهر هذه الظاهرة عندما تزداد أعدادها ويقل غذاؤها .

* * * * * * * *

الهجرة العدوانية الحيوانية

لا شك أن هذا العنوان سيذكرنا بجرذان التتار وهجرتهم إلى بلاد المسلمين ، وهجرة الهكسوس إلى أرض مصر ، والصرب إلى إقليم كوسوفا... وهذا أيضا من أغرب مظاهر السلوك في الحشرات بأسرابها وغاراتها العدوانية والتي قد تزاولها بعض أنواع النمل في غابات البرازيل وبيرو ، لدرجة أن البعض يطلق عليه ((النمل المحارب)) فبعضه يخرج في حملات للإغارة والتخريب وجمع الطعام في جيش قد يكون قوامه لا يقل عن ٣٠ ألف نملة تسير في موكب قد يصل إلى ١٥ مترا ، وبعرض يقترب من المترين .

الجراد :

نظرا لأن الجراد أهم ما يتصف بهذه الظاهرة ، فهو يهاجر في أسراب قد يصل الواحد منها إلى أكثر من ١٠٠٠ مليون جرادة تغطى في المتوسط مساحة قدرها ٢٠ كم ٢ ، ويقطع الجراد في رحلته مسافة في اليوم تقدر بنحو ٣٠ – ٤٠ كم ، أما ما ينتج من كوارث اقتصادية وبيئية ، فالله سبحانه وتعالى أعلم بها ... هذه هي رؤية عامة عن ملامح هذه البيئة الحيوانية في كتاب الله المنظور – الكون – فماذا عن الوتر الآخر ولحنه الرباني ؟

*** البيئة الحيوانية في كتاب الله الخالد المسطور — القرآن – :**

رأينا أن لهذه البيئة بفطرتها الربانية وقدرتها الفسيولوجية ،وتوجهاتها البيئية، ما جعلها تجتمع بعضها مع بعض عن طريق وسيلة تفاهم بينها ، فالدجاجة تصدر أصواتا إلى صغارها فيرقد الصغار في مكانهم آمنين ساكنين

دون حركة ، وبصوت آخر تجمعهم حولها في صفوف منتظمين واقفين كما لو كان الأول للتحذير والثاني للنداء بانتهاء الخطر وزواله كما لو كانت ثكنة عسكرية .

سورة النمل : أورد القرآن على لسان سليمان عليه السلام أنها تتكلم نطقا بلسان مقالها انظروا إلى هذا الإعجاز ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُواْ مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ (١)

أجل ! « قالت نملة » كما قال القرآن الكريم : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ (٢) فلا فرق في المقولة بين الاثنين فكلاهما قول وهل القول إلا كلام نطقت به ؟ .

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا ﴾ (٣) .

أليس هذا دلالة ثابتة على القول وليس مجرد إشارات وحركات وهذا ما أقره « موريس ما ترلنيك » في كتابه « عالم النمل » وما أثبته «جون لوبوك » عالم الحشرات من خلال تجاربه :

• هدهد بلقيس وحكمته : هنا نتعدى خطوط اللغة ،ونصل إلى خط أبعد بعد أن كشف له الله الحجب ، ما لم يتوافر لسليمان عليه السلام وسجل ذلك القرآن :

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَآئِبِينَ ، لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (٤) .

---

(١) النمل : ١٨ .
(٢) غافر : ٢٨ .
(٣) النمل : ١٩ .
(٤) النمل : ٢٠ ، ٢١ .

إذا كان ذلك موقف سليمان عليه السلام وقت غضبه ، فماذا كان موقفه عندما حضر الهدهد؟ ٠٠ وماذا قال الهدهد ؟.

﴿ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ (١) .

مقدرة للهدهد لم يمتلكها النبي سليمان الذي امتلك الملك والحكم والنبوة.

• الطيور وطيرها في الكتاب المسطور : قدرة الله على إعطاء عالم الطير مقدرة ربانية بتكوين معين لسبب يعلمه الله ، وفي هذا التكوين يمنع الطائر من الانقلاب في أثناء الطيران وصدق الله إذ يقول :

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ (٢).

وقول الله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ (٣)

• الجراد في المسطور :

أمة من الأمم وجند من الأجناد ، ورأينا في كتاب الله المنظور – الكون– ماذا يفعله الجراد ، وكيف كان آية من الآيات التسع التي أرسلها الله على قوم فرعون ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ (٤) .

ويرى البعض – ابن جرير – أن الجراد لم يدع لقوم فرعون ورقة ولا

---

(١) النمل : ٢٢ .

(٢) النحل : ٧٩ .

(٣) الأنعام : ٣٨ .

(٤) الأعراف : ١٣٣ .

شجرة ولا زهرة ولا ثمرة إلا أكلها وأفنت الخضر كلها فأكل الخشب حتى الأبواب والسقوف وابتلى الجراد بالجوع فجعل لا يشبع حتى أكل مسامير بيوتهم ... ولننظر كيف بين القرآن قوة انتشاره في قوله تعالى :

﴿ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ (١) .

●**منافع هذه البيئة :** إنها مصدر من مصادر الغذاء ((اللحم)) وله أهميته الواضحة في بناء قوة الجسم وفتوته ، وعضلاته فضلا عن الانتفاع بجلودها .

●يقول الله تعالى :

﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الطور: ٢٢] .

﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [النحل : ٥] .

وكان من التوافق الذي يدل على الإحكام القرآني ودقته بلطائفه الربانية، أن تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير والمحرمات الحيوانية ورد كل ذلك في سور تحمل أسماء حيوانية (البقرة – الأنعام – النحل) وهذه الأسماء الحيوانية الثلاثة هي مصدر الطعام الحلال من مصادره الحيوانية .

● الكتاب المسطور – القرآن – يدعو إلى النظر لهذه البيئة :-

يقول الله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ (٢) .

وهذه دعوة صريحة من كتاب الله المسطور – القرآن – للتأمل في

---

(١) القمر : ٧

(٢) الغاشية : ١٧

واقع كتاب الله المنظور — الكون فقد أمرنا سبحانه وتعالى بالنظر فيها وفي خلقها ، وإذا نظرنا في كتب علم البيولوجي (الأحياء) لعرفنا مدى الإعجاز لما يتميز به الإبل من تأقلم وظيفي مع الحرارة الشديدة ، فضلا عن سنمه ورموش عينيه .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾[١] .

سلاح طيران رباني من هذه البيئة الحيوانية ، والذي يأمرنا المولى عز وجل للاعتبار بهذه الخصائص وهذه القدرة وهذا الجيش من هذه المملكة الحيوانية .

* * * * * * * *

---

(١) الفيل .

السلامة البيئية
والتوازن الذي كفله الإسلام للحيوان

الإنسان من غير قلب أشبه بالآلة الصماء ، والحجر الصلد ، فإن حقيقة الإنسان ليس في الغلاف الطيني من لحم ودم وعظم وإنما هي تلك اللطيفة الربانية ، والجوهرة الروحية التي بها يحس ويشعر ، وينفعل ويتأثر ، ويتألم ويرحم ، هي القلب الحي .

وعندما ننظر إلى السنة النبوية المطهرة لوجدنا فيها من التربية والسلامة البيئية ما سبق به الإسلام الدنيا كلها ؛ فمن هذه التعاليم وهذه السلامة ، فقد أمرنا ﷺ بالحفاظ على التوازن البيئي وعدم إبادة الحيوان فقد قال ﷺ : ((لا تقتلوا الجراد فإنه جند الله الأعظم))

ويتضح هذا المبدأ بصورة واضحة تبين خاصية السلامة البيئية للحيوان ورعايتها في قول الرسول ﷺ

((نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة فأخرج متاعه من تحتها ثم أمر ببيتها فأحرق بالنار فأوحى الله إليه فهلا بنملة واحدة)) [1] ما أجمل السلامة البيئية الإسلامية - الحضارية - ورعايتها لهذه الثروة .. ولننظر إلى الحديث المشهور عن الهرة ، وتعتبر قاعدة بيئية في تعاملنا مع هذه البيئة.. فقال ﷺ :

---

(١) رواه البخاري

((عذبت امرأة في هرة)) قطة ((أوثقتها فلم تطعمها ولم تسقها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض)) [١] .

أجل هذا هو الإسلام ؟ امرأة تدخل النار في هرة ؛ لأنها منعتها من حقها الطبيعي في الحياة ، وعدم مراعاة هذه الحرمة ، وهو في رأي الإسلام فساد، يعاقب عليه صاحبه أن تدخله النار.

عمر بن الخطاب يقول : ((والله لو تعثرت بغلة في العراق لسُئل عنها عمر لماذا يا عمر لم تمهد لها الطريق)) ؟!

أي مسئولية هذه ؟ ومسئولية عن ماذا ؟ عن حيوان ؟! والقضية وأشكالها ؟! ملابسات عدم تسوية الطريق لهذه الدابة ... نعم هذه هي الحضارة - الإسلام - وهذا هو تاريخها الأبيض الناصع البياض .

*وماذا عن الكلب والجنة ؟!

بل أنه يوجد تحت باب كامل في صحيح مسلم بعنوان ((فضل سقى البهائم ثم المحترمة وإطعامها))

فعن أبي صالح السمان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :-

((بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث من العطش فقال الرجل : لقد بلغ هذا من العطش مثل الذي كان بلغ منى فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له قالوا : يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجرا فقال في كل كبد رطبة أجرا)) [٢] .

---

(١) رواه البخاري .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم .

هذه هي ملامح السلامة البيئية الحضارية - الإسلامية - بعطائها الواسع الشامل التي جاوزت الإنسان - مركز البيئة -لتمتد إلى هذه الحيوان الأعجم، فالمؤمن من خلال هذه الأحاديث النبوية مأمور أن يتقي الله فيها وأنه مسئول أمام ربه عن هذه العجماوات .

*البيئة الحيوانية مؤسسة أول عاصمة مصرية :

جانب سريع يبين عظمة التاريخ الإسلامي لمصرنا الحبيبة - كنانة الله في أرضه - وما هي قصة أول عاصمة إسلامية في تاريخ مصر الإسلامي ، ولماذا سميت بهذا الاسم - الفسطاط :

سريعا نعلم أن عمرو بن العاص رضي الله عنه عندما فتح مصر نزلت حمامة بفسطاطه - خيمته - فاتخذت من أعلاه عشا وحينما [خرج] عمرو ابن العاص رآها ، فلم يشأ أن يهيجها بتقويضه لفسطاطه ، فتركه وتكاثر العمران من حوله ، فكانت مدينة الفسطاط ، بل إن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز نهى عن ركض الفرس إلا لحاجة ماسة ... وأنه كتب إلى صاحب مصر : أن لا يحملوا أحدا بحمل ثقيل ، وكتب إلى واليه بمصر :

إنه بلغني أن بمصر إبلا نقالات يحمل على البعير منها ألف رطل، فإذا أتاك كتابي هذا، فلا أعرفن أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل .

جنون البشر وجنون البقر

رفق الإسلام - كما رأينا بالحيوان وبيئته - بشريعته وتعاليمه ، ويتضح ذلك عندما نعلم أنه أقرت أسفار اليهود المقدسة مسئولية الحيوان !! وعقابه

في حالتين : أحدهما : بتسبب الحيوان في مقتل الإنسان ، والثانية : تتعلق في الاتصال الجنسي بين إنسان وبهيمة .

ـ المحروث والحقل المجاور !

•• وماذا عن زراد شيتهم التي تذهب أسفارها أن الكلب المصاب بمرض الكلب إذا عض خروفا فقتله أو إنسانا فجرحه قطعت أذنه اليمنى !!

وبعد هذا الشطط كان الحدث الإعلامي المفضل عام ١٩٩٦ هو «جنون البقر » الذي حدث ببريطانيا – ودائما الظلام يأتينا من الغرب والذي حدد البيئة الحيوانية بها ، وذلك بسبب غياب الوازع الأخلاقي ، وحبهم في الكسب السريع ، والسبب في هذا المرض طبيعة الأعلاف حيث إنها مخلوطة بمواد حيوانية كأدمغة الأبقار والماعز وكانت تحتوى على مادة البريون « Prion» والتي بدورها تعمل على تفتيت خلايا الدماغ وراح ضحيتها « ١,٦٧٠,٠٠» رأس ماشية ، فضلا عن الحالات البشرية التي لاقت الوفاة بسبب ذلك .

أين أنت أيها الجاحظ الآن لإضافة ظاهرة الجنون هذه لكتابك «الحيوان» بل الشيء الغريب أن زكريا بن محمد القزويني الذي يعتبر مؤلفه تحفة فريدة في هذا الشأن .

« عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات » لم يوجد عجيبة به تقترب من هذا العجب العجاب والمفروض لو أنصف الغرب لأخرج لنا كتاب على وزن كتاب الدميري « قصة الحيوان الكبرى »وأن يأخذ هذا العنوان مع تغيير بسيط « قصة الجنون الكبرى » تكون بمثابة موسوعة مبوبة لأمراضهم وجنونهم ٠٠ التي علاجها موجود في روح الإسلام ورأفته بهذه البيئة التي ظلمها الجميع ولم ينصفها إلا هذا الدين الخاتم

الذي اتخذوا منه عدوا يحارب وأساطير يجب أن ينتهي عهدها!! وأخيرا ، فلا أقل من أن نختتم هذا المبحث ! كيف نرى وحدة الله تتمثل في مراحل هذه الحيوانات وطبيعة خلقها البيولوجية سواء منها من يزحف أو يمشي على اثنين أو على أربع ؟، إلا أن طبيعة تكوينها وروح خلقها وقدرة إبداعها وطبيعة سلوكها وقوة إيمانها في تسبيحها لوحدة ، فسبحان الواحد الأحد حقا وصدقا وحدانية الله تتراءى في وحدة خلقه وقدرة الله وعظمته تتراءى في بديع صنعه .

* * * * * * * *

البيئة المائية وروح الوسطية

الماء عنوان الطهر والنقاء ، ووسيلة للخضرة والنماء ، ولولاه ما عرفنا الورود والرياحين والياسمين وأي مصدر من مصادر الحياة ·· ومن خلاله ترتبط الأرض بالسماء ، والماء فوق ذلك آية من آيات الله تدعو إلى الإيمان.

﴿ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١) .

ثم إن دورة الماء بحالتها المختلفة سواء في عملية التبخير من مياه المحيطات والبحار ثم تكوين السحاب ثم نزول المطر ، وآية الله في الماء المالح والماء العذب ، ثم كيف ينزل من السماء فتصبح الأرض مخضرة ، وعليها تقف حياة الإنسان والحيوان ··· نجد أن كل هذه المراحل والمظاهر تدل على قدرة المبدع سبحانه في وجود هذا التناغم والوفاق المحكم مع الطبيعة والعالم والكون ، ولا يحس هذا إلا المسلم الحق ؛ لأن التصور الإسلامي له رؤية واضحة في رسم خط جديد يربط بين الإنسان والعالم المحيط به ··· وهذه الخط يقوم على التوازن والتناغم والوئام والانسجام···والتكامل والوفاق ·· والتجانس والالتحام بين الإنسان ومظاهر الطبيعة ·· فما دامت قوى الطبيعة وطاقاتها قد سخرت أساسا لخدمته ومساعدته على الرقي الحضاري وإعمار العالم ، فإن العلاقة بينهما هي علاقة انسجام وتقابل وتواصل وتعاون ، وتكامل وكشف وتنقيب .

---

(١) البقرة : ٧٤ .

* الوسطية وعلاقاتها بهذه البيئة ..

نحن نتحدث عن رعاية الإسلام للثروة المائية ، ولكن أردت أن أبين مبدأ الوسطية قبل الدخول لهذه البيئة المائية ، وبتناولنا لهذا القضية نكون وضحنا ركنا أساسيا وهو ((الترشيد)) كما سنوضحه فيما بعد .

والوسطية التي ندعو إليها ليس دعوة ينادي بها مفكر ، وإنما هي طبيعة هذا الدين ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (١) .

والوسط بطبيعته هو المكان الذي تستوي إليه المسافة من الجوانب كمركز الدائرة ، وإن كان في بيئتنا الإسلامية هو عنوان للسلامة البيئية ؛ لأنه يمثل الفضائل والخصال الحميدة ، لوقوعها وسطا بين طرفي إفراط وتفريط.

وكان انعكاس هذا المبدأ وهذه القاعدة الوسطية منهاج حياة لسلفنا الصالح ، فعن أبي هريرة وزيد بن ثابت رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم:

((نهى عن الشهرتين : رقة الثياب وغلظتها ، ولينها وخشونتها ، وطولها وقصرها . ولكن سداد فيما بين ذلك واقتصاد))(٢) ، أي توسط واعتدال.

وعن عمرو بن الحارث أن رسول الله - ﷺ قال : ((أمر بين أمرين ، وخير الأمور أوسطها)) .

والوسطية الإسلامية ليست وسطية أفلاطون كالجمع بين أطراف المعادلة ، وإنما هي وسطية تجمع بين محاسن طرفي المعادلة كالحكمة هي

---

(١) البقرة : ١٤٣ .

(٢) البيهقي في شعب الإيمان .

وسط بين السفه والبله ، وكالعفة وسط بين الشر وخمود الشهوة ، والشجاعة وسط بين ظاهرتي رذيلة الجبن والتهور وقل ذلك على الكرم ، فهو وسط بين رذيلتي البخل والإسراف ، فالكرم يأخذ من البخل أفضل ما فيه وهو الاقتصاد، ويأخذ أفضل ما في الإسراف وهو الجود والسخاء ٠٠ والعدالة أيضا وسط بين رذيلتي الظلم والانظلام .

ولذلك نجد أن قول الله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوَاْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبّ الْمُعْتَدِينَ ، وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾(١)

وهم قوم من الصحابة عزموا على أن يلازموا الصيام والقيام ولا يقربوا النساء والطيب ، ولا يأكلوا اللحم ، ولا يناموا على الفراش وأن يرفضوا الدنيا ويلبسوا المسوح ، فنزلت هذه الآية ناهية عن تحريم ما أحله الله ، وتحليل ما حرمه الله داعية إلى القصد بينهما والوقوف عند حدود الله، وعدم مجاوزتها بمغالاة أو تقصير .

ثم إن أهم ما يميز عباد الرحمن التي وردت ، صفاتهم بسورة الفرقان :

﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ (٢).

وحديث نبوي يتصل بهذه التوازن والوسطية لملامح البيئة والمحافظة على سلامتها ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

((إن لكل شيء شرة ولكل شرة فترة ، فإن صاحبها سدد وقارب فارجوه،

---

(١) المائدة : ٨٧ : ٨٨

(٢) الفرقان : ٦٧ .

وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعودوه »[١] ؟

والشرة : هي الحرص على الشيء والسرعة في القيام به ، على عكس الفترة التي هي خفوت للهمة ، واللين بعد الشدة .

ويبين هذا الحديث أن صاحب الشرة إن سدد وقارب فأرجوه عن طريق اتباعه لسبيل القصد والاعتدال، وتجنب إفراط الشدة ، وتفريط الفترة فتوقعوا له الفوز والفلاح .

(وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعودوه ، وهي صفة المبالغة والإفراط حتى اشتهر بها فلا تعدوه من الصالحين ، ولا من الفائزين المفلحين وهو ملمح من ملامح الوسطية الإسلامية ، وما يترتب عليها من القصد والاعتدال هو أساس السلامة البيئية والتوازن البيئي ولذلك « كان أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » لأن الإفراط يسلمه إلى الكلال والملال ويكون ذلك حلقة إلى الانقطاع عن هذه الأعمال... والوسطية أيضا مطلوبة في الدين ، فعن أبي هريرة رضي الله أن رسول الله صلى الله ﷺ قال :

« إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحدا إلا غلبه ، فسددوا ، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة، والروحة، وشيء من الدلجة »[٢] .

وهذه هي طبيعة الدين أنه سهل هين، وأن المشدد فيه مغلوب لا محالة .

وحديث آخر يدعو إلى التوسط والاعتدال وهو ما رواه البزار عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، فإن المنبت لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى » فالدين الإسلامي مع سهولته قوي

---

(١) رواه الترمذي .

(٢) أخرجه البخاري والنسائي .

لا يغالب ، ولا يتشدد فيه أحد إلا غلب على أمره، فينبغي الاجتهاد فيه بلين ولطف ، لا بشدة وعنف .

* وماذا عن عدم الإسراف في المياه ؟:

﴿ يَابَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (١)

دعوة من الله إلى الترشيد :

وبذلك نجد أن الترشيد مبدأ إسلامي أصيل ، بل يكره الإسراف في ماء الوضوء ؛ وبذلك نجد أن الترشيد من أجل المحافظة على سلامة البيئة المائية، وليس نوعا من أنواع الحرمان في أي شكل من أشكاله المفروضة ، ولكنه اعتدال وتوازن في السلوك تجاه هذه النعمة ، والتي يحفظ لها ملامحها والشيء الجميل أن هذه الدعوة للترشيد مسبوقة بتوجيه كريم

((التحلي بالزينة)) وأين مكان هذه الزينة ؟. عند كل مسجد ذلك المكان الذي تتلاشى فيه آمال الإنسان وطموحاته عن كل زخارف الدنيا ومتاعها الفاني لتحلق في آفاق السماء ووعودها الأخروية بكل ما حوت من أنواع ومختلف النعم ... نجد أن الإسلام يحثنا على الزينة والالتزام بها عند كل مسجد ... ما أجمل هذا الجمال الذي يلازم المسلم في كل دورات حياته... جمال الزينة .. جمال الروح .. جمال الإيمان .. جمال التصور .. جمال الاعتدال .. جمال التوازن .. جمال الوسطية .. جمال الاقتصاد ومحاربة الإسراف .. نعم إن الله جميل يحب الجمال .. وقبل التطرق إلى عالم البيئة المائية فننظر إلى هذا الإعجاز الذي بينه

---

(١) الأعراف : ٣١ .

الأستاذ/عبد الرازق نوفل في كتابه ((الإعجاز العددي)) فقد وجد الكاتب أن هناك تطابقا واضحا في العدد بين الطهر والإخلاص ، ولاشك أن الطهارة مرتبطة بالماء ، كما في النص الكريم ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ [١] .

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً طَهُوراً ﴾ [٢] .

وبنفس العدد ٣١ تكرر لفظ الإخلاص وكل مشتقاته كما في قوله تعالى:

﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي ﴾ [٣] .

وهكذا يساوى الطهر وكل مشتقاته بالإخلاص وكل مشتقاته إذ يتكرر كل منهما ٣١ مرة في القرآن الكريم ...

صدقت يا إلهي فيما قلت ﴿ ألر .. كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ .

---

(١) الأنفال : ١١ .

(٢) الفرقان : ٤٨ .

(٣) الزمر : ١٤ .

البيئة المائية
بين كتاب الله المسطور – القرآن –
وكتاب الله المنظور – الكون –

يوجد بالعالم كثير من الأنهار ، ونحن نعلم أن الأنهار تعتبر المصدر الأساسي من مصادر الشرب ، وأهم الأنهار بالعالم العربي نهر النيل ونهر دجلة والفرات والليطاني .

ونظرا لأن الأنهار تعتبر من المصادر الأولى للمياه العذبة ، فقد حفظ الله سبحانه وتعالى خاصية العذوبة لها وما يتم عن طريق دورة التبخر والتكثف، فضلا عما أوردته آيات القرآن من خاصية احتفاظ مياه الأنهار بنسبة أملاح قليلة جدا مقارنة بماء البحر ، رغم أنها الوعاء الناقل للملح إلى البحار على مر السنين حسب النظرية العلمية ، هناك الكثير من كتاب الله المسطور « القرآن » عن أهمية الأنهار للحياة النباتية وإحياء التربة والصيد.

وهنا نجد قول الله تبارك وتعالى ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴾ (١) .

نعم ، مسخرة كالشمس والقمر ، والليل والنهار .

*فماذا عن الوديان في كتاب الله المنظور – الكون – ؟

من المعروف أن الماء له قوة من التأثير قادرة على تغيير اليابسة ، فعند هطول الأمطار وتتابعها فتقوم بجرف التربة ، وبخاصة على جوانب التلال بسبب طبيعتها الجغرافية ، وعندما تستمر مساراتها فوق الجبال فتقوم بنحت

---

(١) إبراهيم : ٣٢ .

وديان تكون هي مجاري الأنهار ولكن هذه الوديان تختلف من منطقة لأخرى حسب طبيعة الأرض فضلا عن غزارة الأمطار الساقطة عليها ... وبفعل سرعة التيار المائي تندفع تلك الأنهار المكونة من الأمطار والسيول حاملة معها حبيبات التربة والأحجار ، وتستمر عملية الترسيب بتتابع على طول المجرى المائي ، ومن خلال عملية الترسيب هذه بدرجاتها المختلفة تتكون تربة ذات خصائص معينة .

* الوديان في الكتاب المسطور - القرآن -

تعبير يفيض بالحيوية التي يحياها المسلم والإنسان بوجه عام عندما يرى هذه الصورة - كما وردت في كتاب الله المنظور مرسومة وهي غاية في الدقة والحسن ، والأكثر من ذلك كله ما يقوم به الكتاب المسطور - القرآن - بربطنا برب السماء وهو سبب رئيسي في تماسك السلامة البيئية... فللنظر إلى هذا القول الكريم الذي يأخذ بالألباب ويوقظ الهمم الساقطة على هذا النور الرباني ، المصور هذه الحقيقة الكونية

قال تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ ﴾ (١) .

** عالم البحار بين كتابي الله المسطور والمنظور..

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن

(١) الرعد : ١٧ .

بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

هكذا حكمته سبحانه وتعالى وكلماته اللا محدودة ، فنجد أن البحار في كتاب الله المسطور تعبر عن هذه الحقيقة ؛ لأن البحار تغطي حوالي ثلاثة أخماس اليابسة ، حيث إنها تعتبر أكبر وأعظم سطح مائي يميز كوكبنا البحري .

** العطاءات الربانية للبيئة البحرية بين كتابي الله المنظور والمسطور فنحن نعلم أن البيئة البحرية مصدر رئيسي للبروتين ((السمك بأنواعه)) ، فضلا عن حيوان الإسفنج واستخداماته المتعددة ، وكذلك أنواع الحلى كاللؤلؤ والمرجان والذهب في الأنهار ، فضلا عن وسيلة انتقالية – انتقالات ، وهذا الحاجز الواضح عند التقاء ماء البحر بالنهر .

هذه الحقائق نجد أنها مسطورة في الكتاب المسطور ولنبدأ بالخاصية السابقة الذكر .

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ (٢)

ومن الثروة المائية الموجودة في كتاب الله المنظور ، نجد أنها هي في كتاب الله المسطور .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ (٣) .

---

(١) لقمان : ٢٧ .

(٢) الفرقان : ٥٣ .

(٣) فاطر : ١٢ .

وفي موضع آخر : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [(١)] .

ويمتد هذا العطاء ليشمل الفلك يقول الله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلَامِ ﴾ [(٢)] .

والجوار المنشآت إن كان المتعارف عليها أنها الفلك إلا أن البعض يرى أن المقصود به الأمواج ، على أساس أن المنشآت تكون عليه وليس فيه ، ثم إنها طارئة عليه وليس من أصله .

** هذا هو الأساس وقدرته الربانية على الجمع بين القراءتين القراءة في كتاب الله المنظور وانعكاس في كتاب الله المنظور ، وانعكاس في كتاب الله المسطور ، والعكس صحيح ... فلا انفصام بينهما ، ولكن ترابط وتلاحم، وتناغم وتوافق وتكامل وتقارب .

* بيئتنا المائية ودورها ووجودهـــا في الحياة الأخروية :

إذا كان هذا الحديث عن الماء والبحار والأنهار ، وكيف أن أكثر الآيات القرآنية تحدثت عن الأنهار ، وفي موضع ﴿ تجري من تحتها الأنهار﴾ والماء بطبيعته يأسن من طول مكثه ، كما أن آفة اللبن أن يتغير طعمه إلى الحموضة ، وآفة العسل عدم تصفيته ، ولكن في الفردوس كل هذه الآفات لا مكان لها وهنا يقول الله تعالى :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ

---

(١) الرحمن : ٢٢ .

(٢) الرحمن : ٢٤ .

فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [1] .

* ويقول الرسول - ﷺ ((الفردوس ربوة بالجنة وأعلاها وأوسطها وفيها تفجر أنهار الجنة)) .

ولكن ماذا عن نهر النيل؟! وهل له مكان في الآخرة ؟، فعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال :

((أنزل الله من الجنة خمسة أنهار سيحون وهو نهر الهند ، وجيحون وهو نهر بلخ ، ودجلة والفرات وهما نهرا العراق والنيل وهو نهر مصر ، أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها وجعل فيها منافع للناس في أصناف معايشتهم وذلك في قوله تعالي: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾[2] .

* * * * * * * *

---

(١) محمد : ١٥ .

(٢) المؤمنون : ١٨ .

التاريخ الإسلامي وصورة هذه البيئة فيه

إذا نظرنا إلى التاريخ الإسلامي ، وكيف قدرت قيمة هذه الثروة المائية من جميع النواحي وأصبحت من ضمن إستراتيجياته التي ينفع من خلالها ، وليس أدل على ذلك إلا من خلال الوجود الإسلامي البحري في جزر البحر المتوسط وغير :

- هذه جزيرة كريت والتي تم فتحها سنة (٥٤هـ) في زمن معاوية وصارت إقليما عثمانيا بعد ذلك .
- **مالطة** : هذا الأرخبيل بجزره المتعددة ، ظل فيه المسلمون مائتي سنة وحتى الآن لغتها تجمع بين العربية والفينيقية .
- **سردينيا** : وتم فتح هذه الجزيرة في عهد الوليد بن عبد الملك .
- **قوصرة** : وهي موجودة ببحر الروم وظلت تحت راية الإسلام حتى خلافه عبد الملك بن مروان .
- **كورسيكا** : وهذه الجزيرة منشأ نابليون ، وقد فتحها عرب الأندلس عام (١٩٠هـ) .
- **البليار** :وهو أرخبيل من مجموعة جزر شرق أسبانيا وتم فتحها عام (٨٩هـ) بقيادة عبد الله بن موسى بن نصير .

وللأسف أصبحت الحرب المائية تهدد السلامة البيئية والتوازن البيئي ، بعد أن اشتدت أزمتها ، وأصبح الجميع يحس بخطرها على أساس أن ثروة الماء محدودة ، وسكان الأرض في تكاثر غير محدود ، والبعض يرى أنه من الممكن أن هذه الثروة قد تصل إلى درجة من النضوب في أواسط القرن

الواحد والعشرين ، ونهر النيل الذي كان بحرا في الأمس القريب ، قد تناقصت مياهه في المدة الأخيرة ، وإذا خرجنا إلى الوطن الإسلامي نجد أن أغلبه خال من الأنهار باستثناء العراق وسوريا ، بل أصبح سد أتاتورك في تركيا من ضمن العوامل التي تهدد الثروة المائية لكل من العراق وسوريا رغم إسلامها وأنها كانت في يوم من الأيام دولة الخلافة والمؤلم في ذلك ما تم مؤخرا من علاقات مشبوهة بين تركيا والعدو الصهيوني ، وعموما ، فإن إسرائيل قد بادرت بالطلقة الأولى لهذه الحرب ٠٠٠ عندما قررت إقامة مصنعا يعمل بالطاقة النووية في رفح لتحلية ٥٠ مليون متر مكعب من مياه البحر سنويا ، في الوقت الذي لم ننته فيه من الصراع على الأرض لندخل صراعا آخر أكثر خطورة هو الصراع على الماء ، ولعل ذلك يؤدي إلى تكاتف الدول ذات الاقتصاد المرتفع في مساندة هذا المشروع الإستراتيجي العربي لتحلية مياه البحار وبخاصة أن أغلبها يتميز بالفقر المائي وهنا أتذكر قول الشاعر :

أبكي على أمة مشلولة كانت   على السحب فاندكت قواعدها
فهل ترى لها اليوم من مجد ومن شان؟   الغرب يلهو بصاروخ وطائرة
ونحن نلهو بأوتاد وعيدان

أو كما قال آخر :

كمثل الطبل يسمع من بعيد   وباطنه من الخيرات خال

خال من الإيمان مفجر الطاقات ومبعث الهامات ، ولكن مازال الأمل باقيا كما وعد الله سبحانه وتعالى ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ

دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور :٥٥]

وخير ما نختتم به هذا المبحث هي قدرة الله والتي نراها في كيفية نبوع الأنهار من الجبال ﴿ **وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء الفرات**﴾.

وقدرة الله لمصدر السحاب الذي ينشأ بفعل الرياح التي تثير بخار الماء ﴿ **الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا** ﴾ .

وماذا عن الخاصية - الأسموزية - وهي استحالة انتشار الأملاح من البحار إلى الأنهار العدبة بفضل هذه الخاصية بفيوضاتها الربانية ، التي تدفع جزيئات الماء العذب إلى الانتشار في اتجاه الماء المالح لا العكس .

﴿ **مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان** ﴾ .

الله أكبر لهذه القدرة الربانية التي تتراءى في بديع صنعه ، فما أجمل اجتماع نور الإيمان وصحوته مع ضمير العلم ونفحته وما يؤدي كل ذلك إلى خلق إنسان يعيش مادية الأرض الصحيحة بروحانية وأحكام السماء المحكمة وهو أقصى درجات الصفاء والارتقاء والتقدم والبقاء لأمل منشود

﴿ **وكأس من معين** ﴾ .

لا نعرف كأسا سواه في الدنيا على عكس التي خضعت لها الرؤوس وعبتها المجوس (ماء الخمر) :

كن غديرا يسير في الأرض رقراقا ... فيسقي من جانبيه الحقول

تستحم النجوم فيه ويلقى ... كل شخص وكل شيء مثيلا

لا وعاء يقيد الماء حتى ... تستحيل المياه فيه وحولا

وتقوقع إذا السماء اكفهرت ... مطرا في السهول يحي السهولا

الإسلام ورعايته
للثروة المعدنية والنباتية

الإسلام له قوة دفع ذاتية ، تنعكس على كل المناحي ؛ ولذلك لا غرابة أن تنعكس هذه القوة الذاتية التي يحركها هذا الدين وطبيعته على الصناع والفنانين المسلمين في صناعة المعادن ، وما يوازي ذلك الإبداع في الميادين الفنية الأخرى ، مثل الجهد الإسلامي الفني على النسيج والعاج... فضلا عما خلدوه لنا في العمارة الإسلامية بأنواعها المختلفة .. وقبل أن نتكلم عن رعاية الإسلام للثروة المعدنية المختلفة ...نبين أن صناعة التحف الخشبية التي تعتبر الآن أثرية عند المسلمين من العلامات البارزة في فنونهم وازدهار هذه الصناعة في الدولة الإسلامية (الحفر على الخشب) والتي تعكس عقيدة هذا الدين وخصوصيته في الفن .

بل كانت الشفرة لها طرقها ولها أدبها في دنيا المسلمين ، فعن أبي يعلي شداد بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإن قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته)) .

انظروا إلى الشفرة ، ومجالها الخلقي الذي تتحرك فيه مجال كله البر والتقوي والرحمة والإحسان ... بماذا ؟ بالحيوان الأعجم أريحوا الذبيحة ما أجمل هذا الشعور الذي يعكس إحساس المسلم في تعامله مع كل مفردات الحياة ... حتى في حالة الذبح ..وشاء القدر أن يكون الدستور الخالد كتاب الله المسطور - القرآن - به سورة كاملة هي سورة الحديد ...

عنوان أمة الحديد والأكثر من ذلك تكرار المعادن بأنواع مختلفة وكثيرة في القرآن الكريم ٠٠٠ والحديد الذي يعتبر عصب الصناعات الإستراتيجية الحديثة والذي هو سورة في دستورنا ٠٠٠ نحن متأخرون في صناعة الحديد٠٠ والذي أوضحت سورة الحديد أصل هذا المعدن وأن أصله من السماء وليس من الأرض ، وهذا إعجاز يضاف إلى إعجازات القرآن الكريم، والذي كشف العلم الحديث الستار عنها مؤخرا ٠٠ لينطبق ما ورد في الكتاب المسطور – القرآن – مع الكتاب المنظور – الكون :-

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [1]

والإسلام طبيعته القوة ٠٠٠ : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ .

وقول الرسول ﷺ : ((المؤمن القوي خير وأحب عند الله من المؤمن الضعيف)) بل كان الحديد يحتل مساحات واسعة من الشعر العربي والإسلامي فقالت :

أصبحت تنهي ولا تنتهي	متى تلحق القوم يا أكوع؟
ويا حجر السن متى تنقض	تسن الحديد ولا تقطع

وانظر إلى طبيعة الشعر وروحه ٠٠٠ متى تلحق القوم يا أكوع ؟!

ولذلك نجد أن التاريخ الإسلامي وحضارته الزاهرة الفريدة عنيت بهذا الجانب في وتقدمت فيه وقت المد الحضاري – الإسلامي – وقبل سيطرة الاستلاب البيئي الذي كان سببه تهميش دور – سورة الحديد – وبالتالي هو

---

(١) الحديد : ٢٥ .

تهميش لفريضة قوة المسلمين السماوية ، انظر إلى المعادن وخواصها ، وطرق استخراجها وصهرها ، فضلا عن تغيير تركيبها ، بل قدرتهم الفائقة لتحويلهم المعادن الرخيصة إلى معادن نفيسة، كأنهم تأثروا بقول الله تعالى: ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ .

فإن كانوا مطالبين بتغيير النفوس الخبيثة إلى نفوس نكية وهي أشد تعقيدا وتركيبا؛ لأن التغيير يكون للفكر والتصور والتخيل والرؤية للحياة ، فلما لا يكون ذلك على المادة الصماء الصلداء وهي بقساوتها وصلادتها أخف وطأة من النفس البشرية ومحور التحويل في هذا وذاك هو المؤشر والبوصلة - القرآن الكريم - .

وحدث في التاريخ الإسلامي ما يشبه الملحمة بين الكيميائيين من علماء الإسلام وبين جماع الأحجار ومقتنيها ، وكان هناك علم قائم بذاته ، وما تفرع عن ذلك من دراسات كل منها له دور معين سواء عن الصفات أو الخواص أو أماكن وجودها وطبيعتها ، فضلا عن طرق صقلها وتقدير أثمانها ولكن لا بأس من أنه إذا ذكرنا هؤلاء العلماء الفطاحل الفحول أصبح أمامنا قاعدة ذات صبة حديدية معدنية ، هي أسباب ثروتنا البيئية ...

• هذا البيروني : ويعتبر موسوعة في هذا المجال ، وما تناول من معادن كثيرة بالفحص أو طرق تركيبها وتحليلها ، فضلا عن كيفية استخراجها من مناجمها وأخيرا ما فوائدها ؟ !.

• ابن حوقل : يعتبر بمثابة المرشد السياحي لهذه البيئة ، في كتابه «المسالك والممالك» إلا أنه كان خبيرا فوضح كيف يستخرج الرخام من «تبريز» والكحل زينة المرأة لزوجها في بيتها من «أصفهان» والرصاص

من ((فرغانة)) نعم ، بيئة عالمية فرضها طبيعة هذا الدين العالمي وما تميز به من قوة دفع ذاتية مصادرها ربانية .

* **أحمد بن يوسف التيفاشي** : وهذا العملاق له جانب من حبنا وود وإخلاص من صفاتنا ، وقد كان له دور بارز في التعدين بمصر وبخاصة الزمرد بصعيد مصر ، فضلا عن كتابه الذي يتسم من طبيعة أفكاره التى كونها الإسلام وهو ((ازدهار الأفكار في خواص الأحجار)) ما أجمل أن ترتبط الأحجار بصلادتها وكثافتها مع الأزهار الفكرية بروحانيتها وعبيرها٠٠٠ بيئة الأزهار الفكرية هي التي منحت المسلم حق امتلاك القوة الحديدية على أساس أنها نفحات ربانية مصدرها السماء حتى كان كتاب البيروني ((الجماهر في معرفة الجواهر)) يدل اسمه على ظاهرة الجماعية التي هي طبيعة هذا الدين ، دين الجماعة .

* **الحسن بن أحمد الهمداني** : وهو أيضا من أفضل الذين كتبوا في علم المعادن والتعدين من خلال كتابه ((الجوهر متين العتيقين)) .

* يحيى بن ماسويه : صاحب كتاب الجواهر وصفاتها ، وقد توفي سنة ٢٤٣ هـ فيا ترى هل مازال للجواهر مكان في حياتنا أو مؤلفاتنا ؟ هذا ما ليس يخطر ببال !

* **ابن الرزاز الجزري** ، وهذا هو الذي يكاد استنطق هذا المعدن مكن صلدته وخشونته في مؤلفه القيم ((الحيل الجامع بين العلم والعمل)) إلا أن الحيل لعالمنا الفاضل ، حيل من نوع محبوب ، حيل مع الحديد الذي يثنيه الفكر الإسلامي والحيل الميكانيكية شاملة وجامعة ، ومن وصف الآلات المختلفة من ضاغطة ورافعة وناقلة ومتحركة ، إلا أن أمريكا وأوربا قدرتها وعرفت قيمتها فاحتفظت بها في متاحفها .

التاريخ الإسلامي وهذه الثروة

المعادن وفنونها ، وتطبيقاتها كان لها صدى واسع في كثير من الأفكار الإسلامية ، فالمعادن كانت من أهم الصناعات التي تتميز بها إيران وخاصة في عصرها الساساني ؛ وذلك لما تتميز به طبيعة أرضها وغناها بالمعادن المختلفة ، إلا أن الإسلام كان له ملمحه الظاهر في صبغ هذه الصناعة بروحها الإسلامي الذي يميز خصوصية سلامتها البيئية وتوازنها ٠٠ وظهرت لنا زخارف تعبر عن هذه الروحة الإسلامية ظهرت في مجالات عدة سواء كانت هذه الزخرفة الضغط أو الحفر أو التكيف فضلا عن طريقة المينا .

إلا أن العصر السلجوقي (نسبة إلى رئيسها سجلوق بن دقاق والتي كان مركزها نيسابور وحلت محل دولة بنى بويه) كان هو العصر الذي يعتبر من أزهى العصور وجدت فيه هذه البيئة ملامحها وكان بعثا جديدا للمعدن وزخارفه المتعددة التي تعبر عن طبيعة جمال هذا الدين وفنــــه .

ولكن هل نستطيع أن ننسي السيف الذي تزخر به كل المتاحف العالمية والإسلامية ، وكانت السيوف رغم أنها لرفع راية الحق ، وشيوع قوة الدين الجديد إلا أن الفنان المسلم تفنن في أشكالها المختلفة ، سواء كانت مستقيمة أو مقوسة ، وكانت أغمادها آية في الإبداع لملامح الفن الإسلامي ، سواء أكان ذلك في زخارفها النباتية أم آياتها القرآنية التي تحض على القوة وفضيلة العدل ٠٠٠ وما زال الإسلام تلازمه هذه العبارة « الإسلام انتشر بحد السيف » ورغم مجانبة هذه العبارة لجوهر الحقيقة ، إلا أن روحها ما زالت سارية على تملك المسلم لناصية هذا المعدن ، وقد كان القوة التي

حفظت للدنيا قيمها وأدبها وأشاع الفضيلة وقيم الحق وحفظ للبيئة سلامتها وتوازنها وانظر إلى السيف في الشعر العربي والإسلامي تعجز عن حصر أبياته ، وهاهو شاعر من العصر العباسي يقول :

أنا ابن مَنْ خاض الصفوف بعزمه وقومها بالسيف حتى استقامت
ركاباه لا تنفك رجلاه عنهما إذا الخيل في يوم الكريهة قامت

وهو وصف للقول الأفقي ، ولكن يلاحظ ارتباط السيف بالخيل ، وهي ظاهرة الفتوة والفحولة والفروسية الذي تميز بها الإسلام في صدره الأول··· وهنا نتذكر أن السيف كان وسيلة إصلاح أيضا وتقويم، وهذه ما قاله الصديق أبو بكر وقت توليه الخلافة :

((لو رأيتم فيَّ اعوجاجا فقوموني بالسيف))

ومن هنا :

أصبح الاهتمام بالمعدن ، والحديد وصناعته مطلب إسلامي دعت إليه ضرورة هذا الدين ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ ···· والصناعة التي نقصدها لنشر قيم الفضيلة والعدل ، وليست الصناعة التي قال عنها ((أرنولد توينبي)) : لقد أغرت فنون الصناعة ضحاياها وجعلتهم يسلمونها قياد أنفسهم ببيعها ((المصابيح الجديدة)) لهم مقابل ((المصابيح القديمة)) لقد أغوتهم فباعوها أرواحهم وأخذوا بدلا منها ((السينما)) والراديو.

وكان ذلك الدمار والانهيار الحضاري الذي سببته تلك ((الصفقة الجديدة)) إفقارا روحيا وصفه أفلاطون بأنه ((مجتمع الخنازير)) ويذهب توينبي بأن الخلاص الوحيد للغرب لا يكون إلا بالانتقال من الاقتصاد إلى

الدين ويؤكد ذلك قائلا : إن الغربي يستطيع بواسطة الدين أن يتصرف تصرفا روحيا يضمن سلامته بالقوة المادية التي ألقتها بين يديه ميكانيكية الصناعة الغربية)) .

وأوضحها الفيلسوف ((محمد إقبال)) ((الرجل العصري بما له من فلسفات نقدية ، وتخصص علمي ، يجد نفسه في ورطة بمذهبه الطبيعي قد جعل له سلطانا على قوى الطبيعة لم يسبق إليه ، لكنه قد سلبه إيمانه في مصيره هو)) ولننظر ما قدمته لنا المادية المعاصرة ، غير قوة الدفع لبعض من أجل صب الوقود على الحروب القائمة حتى ولو لم تكن طرفا فيها لأن استمرار الحروب يحقق له مكاسب ومصالح حيث تتدفق عليها الأموال بشراء السلاح والعتاد وكل احتياجات الدول المحيطة لاستعادة بنائها ومواجهة عدوها .. ثم إن استمرار الحروب فيه إضعاف لشوكة المتحاربين مما ينتج عنه زيادة القوة للخصوم المتربصين ، حيث يتسع لهم المجال لتقسيم هذه الدول التي حطمتها الحروب ... ولننظرها ما يحدث في البوسنة، وكوسوفا ، وما حدث في الخليج وأفغانستان ، وإيران والعراق ، ولبنان وليبيا وتشاد والمغرب والبوليساريو وجنوب أفريقيا ، وناميبيا وسيرلانكيا ... تجد أن الخريطة أغلبها دول إسلامية ... وهذا هو الذي قدمه لنا الغرب .. فماذا قدمنا للغرب .. وقت ارتفاع مظلتنا بسلامتها البيئية ؟ هو خير ما نختتم به دور الإسلام للثروة المعدنية ، والخاتمة هي عبارة عن قطعة معدنية نعم مجرد ((قطعة عملة)) دليل شاهد حي على سلامة البيئة الإسلامية وماذا قدمت للغرب وقد مدها الرباني وتحكيم كتابنا المسطور لشئون إدارة الكتاب المنظور؟ ، وهذه القطعة موجودة بالمتحف

البريطاني بلندن فما هي قصتها : النقوش لهذه العملة يحمل أحد وجهيها (أوفاريكس) بالحروف اللاتينية في ثنايا (محمد رسول الله) في ثلاثة أسطر باللغة العربية وعلى الوجه الآخر كلمة (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) إلى جانب اسمي اثنين من ضاربي العملات ببغداد باللغة العربية!! ولكن من هو أوفاريكس «Offarex » هذا كان ملك إنجليزي يحكم منطقة مرشيا « Mercia» في القرن الثامن الميلادي ،

وهذا كان هو العطاء الإسلامي للحضارة الإسلامية عندما كان يطلب حكام أوربا صك عملاتهم من أجل تيسير شئونهم .

كانت هذه هي عالمية الإسلام ، عالمية في الاقتصاد ، عالمية في نشر الخير ، عالمية في الاحتواء ، عالمية لا إله إلا الله .... ولكن الصعود والهبوط إذا أردنا معرفة مده وجزره بهذا المنظار التاريخي يجب أن نرجع إلى تسجيلات قياسات الترمومتر - الرباني - وقراءتها في كتب بطون التاريخ ، وردهات وخزانات المتاحف ووثائقها ... ستجد القراءة عنوانها الصدق والإخلاص ، وكان دائما القوة والمجد والفخار والعزة والإكبار هي التي أعطت أعلى قراءة للترمومتر - القراءة - بسبب تمكينه من أرض الواقع وانعكاساته على مناحي الحياة ومظاهره ... وأيضا نجد الهبوط الحاد لقراءة الترمومتر ولا نجد غير الانتكاس والانهيار ومرحلة قريبة من الاندثار، فضلا عن هالات مؤسفة من الذل والعار والشنار ، وإذا التمسنا سبب هذه الانخفاض الحاد لهذه الظاهرة وقراءتها لقياس الترمومتر... هو تهميش الظهور عندما أرادت أن تظهر على مسرح الأحداث بغيره، بسبب حب الدنيا وكراهية الموت ولنتذكر « حديث القصعة » ستتداعى عليكم

الأمم٠٠٠ وها هو أصبح واقع بنص هذه الحديث ولم يبق إلا الأمل في نصر الله وقوتـه - ومـا أجملـه مـن أمـل - وبنصـره سـبحانه وتعـالى ينتهـي الفقـر البيئي، وبيئة الفقر وترفرف راية السلامة البيئية والتـي سـتكون حلقـة جديـدة لصحوة إسلامية - حضارية :

﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ .

* * * * * * * *

الروح الإسلامية بدن السلامة البيئية

الإسلام بشموليته ومذهبيته وتصوره رباني المصدر ... عالمي الأبعاد... إنساني الهدف ... تكتيكي التجديد ...هنا نتذكر قول الرسول صلي الله عليه وسلم : ((**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**)) رواه أبو داود في سننه .. هكذا التجديد وإن كان هناك تجديد لمسار البدن (السلامة البيئية) فهو من خلال روح الشريعة السماوية الحضارية - وحقيقتها الواقعية لأي طبيعة بشرية على مسرح الزمان والمكان .. محوره الأساسي الإنسان بعقله وجسمه وفكره وروحه ، وقد عني الإسلام بكل هذه الجوانب حتى تكون على توافق وانسجام مع كل مفردات البيئة المحيطة حتى يتحقق لها السلام والربانية ...والتقدم والرفاهية ؛ لأن الإنسان يعتقد أن هذه البيئة بكل مفرداتها مؤمنة وتسبح الله كل بلغته وطريقته ... وبالتالي هو مؤتمن عليها وكيف أن الرسول ﷺ أصدر منذ ١٤٠٠ سنة قوانين وتشريعات وتعليمات محورها التوازن والاعتدال والوسطية التي هي الروح الأساسية للسلامة البيئية .

ولكن لا بأس .. والرسول قد أوتي جوامع الكلم - أن نبدأ بهذا الحديث الدي يدل على أعلى درجات الوعي البيئي ، ويعتبر مصدرا ومستودعا عالميا للنهي عن إفساد البيئة ومواردها .. وذلك في تشبيه رائع تسيطر عليه لغة المنطق والمعادلات الرياضية ، وهذا الحديث رواه مجاهد عن النعمان ابن بشير رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

((**مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة**

فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ... فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا)) .

إعجاز بيئي ... رؤية ثاقبة لمحاربة الفساد أيا كانت الطرق المتبعة النظرة إلى الكل ... ودور المسئولية في حماية البيئة من مثل هذه الفساد وهذا التدهور البيئي ... وكيف أن المسئولية هي مسئولية جماعية؟ ... مسئولية جماعية ... مسئولية مجتمع .. الفردية ليس لها دور في هذا الطوفان الذي فيه هلاك الجميع ونتائجه الوخيمة على كل مظاهر الحياة... ولذلك لا غرابة أن نجد الرسول ﷺ يدعو الأمة أن تأخذ على أيدي المفسدين وإصلاحهم ، فقال ﷺ :

((من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)) .

. نظرة شاملة جامعة لكل أفراد المجتمع ومحاربته التلوث والمنكر بكافة أشكاله وبأي أسلوب يناسبه وجعله ﷺ بذلك المجتمع وحدة متماسكة ما يؤثر في إحداها يؤثر بالضرورة في الأخريات ، وطبيعة هذا التوجيه أفرزته رؤية الدين التي يرى من يؤمن بها أنه مسئول عن ذلك أيضا في الآخرة :

ولو أنا إذا متنا تركنا ... لكان الموت راحة كل حي
ولكن إذا متنا بعثنا ... وتسأل بعد ذا عن كل شيء

وانظر إلى رؤية أخرى لشاعر:

من كان يعلم أن الموت مدركه ... والقبر مسكنه والبعث مخرجه

وأنـــه بيـــن جنـــات ستبهجه — يوم القيامة أو نار ستتصجه

فكل شيء سوي التقوى به سمج — وما أقام عليه منه أسمجه

ترى الذي اتخذ الدنيا له وطنا — لم يدر أن المنايا سوف ترعجه

وهذا أبو الأسود الدؤلي ودعوته للخير

وكن معدنا للخير وأصفح عن الأذى — فإنك راء ما عملت وسامع

وأحبب إذا أحببت حبا مقاربا — فإنك لا تدري متى أنت نازع؟

وأبغض إذا أبغضت غير مباين — فإنك لا تدري متى أنت راجع؟

وانظر إلى ما قاله على بن الجهم:

هي النفس ما حملتها تتحمل — وللدهر أيام تجور وتعدل

وعاقبة الصبر الجميل جميلة — وأحسن أخلاق الرجال التفضل

ولا عار إن زالت عن الحر نعمة — ولكن عارا أن يزول التجمل

بانوراما عامة ، ورؤية شاملة روحها ومجالها بيئة النفوس والخير والجمال والأمل في رضوان الله تعالى ونيل ثوابه ، والخروج من عنق المادة الضيق الكريه إلى رحابة الروحانية وراثحتها الذكية وعطورها الشديه ورحابتها السماوية – أجل المجتمع الإسلامي هو مجتمع الفضيلة ، والطهر والنقاء والرحمة وهو مجتمع بكر بكارته من بكارة الحور العين ، ولم لا ؟ أليس الله الذي أنشأه وصممه وبين معالمه ووصاياه وأقام منهاجه وأوضح غايته ، لا شك أن كل هذه المقومات هي التي تخلق طبيعة السلامة البيئية وتغذيها وتنميها وتعمل على تجديدها ودورانها واستمرارها مع طبيعة المساحة الزمنية والمكانية ... لهذا الجسد العالمي الذي يُسأل عنه الجسد الواحد - المؤمنون - بوصياتهم الربانية .

فحينما نبدأ دور المبادئ الإسلامية في أثرها على عدم إفساد الموارد البيئية هو أول بيان إسلامي حدده الخليفة الإسلامي الأول أبو بكر الصديق في خطبته ، فيا ترى ما علاقة بنود هذا البيان الإسلامي بموارد البيئة : ((أما بعد أيها الناس أما إني وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد في سبيل إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمتهم البلوى ٠٠٠ أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ٠٠ فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ٠٠ قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله)) .

نعم هذا هو نور الحق ٠٠٠٠ نور العدل ٠٠٠ نور الحرية ٠٠ نور الكرامة ٠٠٠ بيئة اجتماعية خالية من المفارقات والمضاربات عنوانها الصدق ٠٠٠ الخليفة إذا أساء يجب أن يقوم ٠٠٠ الفاحشة هي الفيروس الخبيث لانهيار مظاهر البيئة .

فمتي تأتي هذه المظلة الوارفة التي ينعم الجميع بظلالها وأريجها؟ ولكن إذا تم وضع الدينامو (القرآن) من جديد إلى محطة أرض الواقع .

وثيقة إسلامية - حضارية - لآفاق بيئية

تعد حقا بمثابة أول وثيقة بيئية في تاريخ الإسلام ، وبعد وفاة المصطفى ﷺ وإذا تم بعث هذه الوثيقة من جديد لهذا العالم المعاصر لكان طوق النجاة البشرية البائسة الحائرة وسبيل خلاصها من هذا الكابوس المادي الذي أفسد كل مظاهر البيئة ، ورفرف من جديد السلام والأمن والتوازن البيئي ، بمفهومه العالمي الممتد من طبيعة عالمية الإسلام وقصره لحدود ومساحة الزمان والمكان ، وهذه الوثيقة خاصة أيضا بأبي بكر الصديق وقد وصى بها جيش أسامة ... فما هي روح هذه الوصية ، وبماذا يدق قلبها النابض غير حب الطبيعة في أبهى مظاهرها بجمادها وطيورها ونباتها وحيوانها .

قال أبو بكر الصديق بعد أن وقف في رجاله خطيبا وقال : ((أيها الناس، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا ، ولا تغلوا [١] ، ولا تغدروا، ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكله... وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له .. وسوف تقدمون على قدم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئا فاذكروا اسم الله عليه ، وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا... اندفعوا باسم الله ، أقفاكم [٢] الله بالطعن والطاعون)) .

الله أكبر ... ما شاء الله ... (قارن أيها القارئ الكريم هذه الوثيقة

---

(١) لا تغلوا : لا تخونوا في الغنيمة

(٢) أقفاكم الله : أكسبكم ، وأرضاكم

بسياستها الخضراء وما يحدث الآن في البوسنة والهرسك وكوسوفا والمقارنة متروكة ببابها الواسع الفسيح المفتوح من كل الوجوه) ... ولكن أليست الأرض متعطشة الآن لهذا الماء السلسبيل ... بعد أن أذاقتها الفلسفات المادية والتصورات الإلحادية كل صنوف العذاب وأشكال الذل وصور الهوان التي فقد فيها الإنسان خصوصيته وكرامته .. وكل ما حصدناه جنون البقر .. والتفاح المسرطن .. وعبادة الشيطان .. وشيوع كل مظاهر الرذيلة والشذوذ .

السلامة البيئية للماء :

قاعدة جلية واضحة ، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : ((**اتقوا الملاعن الثلاث البراز في الموارد ، وقارعة الطريق، والظل**)) [١] .

وهذا ما أوضحه العلم الحديث لما يمكن أن ينجم عن ذلك من أمراض تكون البكتيريا قد فعلت فعلها في هذه الموارد وما ينتج عن ذلك من أمراض الزحار أو الزنكاريا ... فكان حديث الرسول بمثابة صيحة يجب أن تتبع في مجال الطب الوقائي .

* ولننظر إلى هذا الحديث وعلاجه لأكبر فيروس يعرض الشعب المصري لأخطر فساد بيئي ((مرض البلهارسيا)) والذي يقول فيه البروفيسور ((نلسون مكتشف مرض نلسون)) : إن هذا الحديث لو تم مراعاته لانتهى هذا المرض – البلهارسيا – .

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه

يقول الرسول ﷺ :

((لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه)) [١] .

وكل هذا يدل على عطاء السنة النبوية للحياة المعاصرة وإذا تم مراعاة هذه الوقاية الدينية ستكون الطريق المودي إلى النماء والازدهار للوقاية الصحية وما يسبب انتهاك حرمتها البيئية وإفساد مواردها .

*وقاعدة بيئية أخرى تمنع فساد الصحة البيئة : يقول الرسول عليه الصلاة والسلام ((البزاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها)) [٢] .

وفي هذا الحديث القادم من نرى فيه كما يقولون - قمة الإتيكيت الاجتماعي إلا أنه أوسع من ذلك بكثير بعطائه الدافق ... قص عبد الله بن قتادة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : ((إذا شرب أحدكم في الإناء ، وإذا بال أحدكم فلا يمسك ذكره بيمينه ، وإذا تمسح فلا يتمسح بيمينه)) [٣] .

ومظهر آخر من مظاهر الطب الوقائي ، يقول الرسول ﷺ : ((فر من المجزوم فرارك من الأسد)) [٤] .

في الوقت الذي نرى فيه الرسول هو القائل أيضا-عليه الصلاة والسلام:

((تداووا عباد الله ، فإن الله لم يخلق داء إلا وله دواء)) [٥].

وتستمر مسيرة العطاء بتيارها الدافق الذي لا تنتهي بدورة هذا الزمان

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه مسلم .

(٣) البخاري .

(٤) البخاري .

(٥) رواه أحمد وابن حبان والحاكم .

﴿ وقل الحمد لله سيريكم اياته فتعرفونها ﴾ [١]

﴿ ولتعلمُنّ نبأه بعد حين ﴾ [٢]

وعندما يتم مراعاة الوقاية الدينية طبقا للرؤية الحضارية - الإسلامية - يتحقق الأمل المنشود للوقاية الصحية بمفهومها الشامل الرحب وصدق الله العظيم عندما قال . ﴿ وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم مآءً غدقاً ﴾ [٣]

ولكن هل تنبأ الجميع بما ستحدثه الطلقة التي قامت بها إسرائيل وهي إنشاء أكبر عملية لتحلية مياه البحر؟!

هذا ما ليس يخطر ببال

** وماذا عن السلامة البيئية للثروة الحيوانية؟ :

تحدثنا سابقا عن اهتمام الإسلام بالبيئة الحيوانية ، ولكن نجد أن الإسلام قد نهى عن إفساد موارد البيئة الخاصة بها ، فيقول الرسول ﷺ : ((لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي)) [٤]

بل نجد أن الرسول ﷺ عندما مر ببعير قد لصق ظهره ببطنه قال: ((اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة ، فاركبوا صالحة وكلوها صالحة)) رواه ابو داود وابن ماجه •

*بل تصل الرحمة والحفاظ على هذا الحيوان إلى عدم إرهاقه بالعمل فوق ما يتحمل . دخل رسول الله ﷺ بستانا لرجل من الأنصار فإذا فيه

---

(١) النمل : ٩٣ .

(٢) ص ٨٨

(٣) الجن ١٦

(٤) رواه أحمد والحاكم

جمل ، فلما رأي النبي حن وذرفت عيناه ، فأتاه رسول الله فمسح دموعه ، ثم قال : ((من صاحب الجمل ؟ فقال صاحبه: أنا يا رسول الله فقال: له عليه الصلاة والسلام : أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه)) رواه أحمد وأبو داود .

ثم انظر إلى حد وصلت في الإسلام في محاربته لمظاهر الفساد في البيئة ، فيقول الرسول ﷺ : ((من قتل عصفورا عبثا عج إلى الله يوم القيامة يقول : يارب إن فلانا قتلني عبثا ولم يقتلني منفعة)) رواه النسائي ٠

بل الأكثر من ذلك أن الرسول ﷺ نهي عن اتخاذ الحيوان هدفا ليتعلم الإصابة، فقد لعن رسول من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا)) رواه البخاري ومسلم.

بل إن أبا إسحق الشيرازي كان يمشي في طريق ومعه بعض أصحابه فعرض له كلب فزجره صاحبه فنهاه الشيخ وقال له : أما علمت أن الطريق حق مشترك بيننا وبينه ؟ .

ولكن يجب أن نفرق بين ذلك وبين دخول الكلب إلى البيت ، حيث قال الرسول ﷺ : ((**لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب أو صورة**)) [1] .

ولم ينطبق ذلك على القطة التي قال فيها الرسول : ((**إنها ليست بنجس إنها من الطوافين عليكم والطوافات**)) [2] .

ويثبت العلم الحديث ذلك حيث إن الكلب يحمل أكثر من خمسين مرضا طفيليا والقط بنفسه لا يحمل مرضا طفيليا واحدا ٠٠٠ أضف أن الكلب ليس له غدد إلا النزر اليسير في باطن أقدامه مما لا يكفيه لخفض درجة حرارته،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤ / ٢٨) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٥ / ١٩٦) .

ولذلك فإن الكلب يستعيض عن عدم وجود الغدد العرقية الموجودة في غيره من الحيوانات الأخرى فيحاول خفض درجة حرارته عن طريق اللهاث... مما أوجب غسل الإناء الذي يلعقه سبع مرات حتى يتم ما يمكن أن يكون موضعا للجراثيم ... ثم نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم ينهي عن أكل لحوم الجلالة وشرب لبنها ((والجلالة هي التي تعيش على البراز الذي يكون مليئا بالسموم التي لاتصفى في المعدة)).

هذه هي رؤية الإسلام (من قرآن وسنة وفكر وتاريخ إسلامي) يبين كيف أن السلامة البيئية هي في قيام منهاج الروح الإسلامية بيئة التوازن والاعتدال والتقديم والارتقائية بمظلتها الشمولية الربانية ، ونكرر لاختتام هذا المبحث بأنه يجب مراعاة قواعد الوقاية الدينية لأنها ؛ المسار الرئيسي والاتجاه الوحيد للوقاية الصحية ، ومن خلال هذه وتلك لن تحدث أزمة غذائية أو أي أزمة من أزمات الحياة الدنيا في حالة سريان تيار الروح الإسلامية - الحضارية - طبقا للحقيقة الربانية المحفوظة في متاحفها السماوية .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

*****

تلازم التدهور البيئي في عدم الالتزام بالضوابط الإسلامية

والآن - عزيزي القارئ الكريم - نلقى نظرة تعرضت فيها البيئة البشرية لمراحل من الدمار والخراب أو بلغة العصر إلى ((الفقر البيئي)) أو((التدهور البيئي)) وكيف كانت نتائجه وما هي الأسباب التي أدت إليه ، وكما يقولون : إن تكرار الظاهرة يدل على تأكيدها ، وسيكون مرجعا في ذلك القرآن الكريم - أصدق الحديث وأحكمه- ولكن نجد أن التقدم والرفاهية، والسؤدد والإكبار والمجد والأصالة والتقدمية والفخار كان يظهر من خلال الالتزام بالضوابط الإسلامية وتحكيم مبادئ الإسلام على أرض الواقع يقارن جيل صلاح الدين في العصر الأيوبي ، وسيف الدين قطز قاهر التتار في عصر المماليك ••• والعكس صحيح أيضا عندما يتم تهميش الإسلام نجد وصمة على كل مظاهر حياتنا كأنها علامة تجارية من الذل والعار والشنار- يقارن ذلك بعد سقوط الخلافة العثمانية وما تبع ذلك من قيام دولة إسرائيل واحتلال معظم الوطن الإسلامي - وسنرى عما قليل كيف تحولت النعم الوفيرة إلى نقم عظيمة وكلها تدل على قدرته وسننه الجارية في خلقه .

أ - قوم نوح ونقمة البيئة المائية :

الماء عماد الحياة وهو أصل الكائنات كما أوضحنا ، وسنرى كيف تتحول هذه النعمة إلى نقمة - الجزاء من جنس العمل - وكيف تتحول هذه النعمة إلى نقمة - الجزاء من جنس العمل - ونحن هنا لسنا بصدد سرد

خيوط القصة ولكن ما يتعلق بقضيتنا البيئية ، والسبب في هذه المحنة هي البعد عن منهج الله ، وكيف كانت قدرة الله سيفا مسلطا على الظالمين في الوقت الذي نحث فيه الفئة المؤمنة ولننظر إلى قدرة الله الخارقة ﴿ فَفَتَحنآ أبوَاب السَمَآء بِمَاءٍ مُنهمِرٍ ، وَفَجَّرنا الأرضَ عُيُوناً فَالتَقَى المَآءُ عَلى أمرٍ قَد قُدِر ، وحَمَلناهُ على ذاتِ ألوَاحٍ وَدُسُرٍ ، تجري بأعيُنِنا جَزَآءً لِّمَن كانَ كُفِرَ ﴾[1].

هكذا نزل الماء من السماء ، وخرج الماء من الأرض ، وانتهت الأسباب الأرضية من حمايتها ، وحان الوقت أن يصحح المسار ، ويلقي الظالمين عقوبتهم المناسبة الربانية ، ونجاة الفئة المؤمنة ، حتى أن ابن نوح عليه السلام كان يحاول اللجوء إلى جبل يعصمه من الماء والغرق ولكن قدرة الله أخذته ولم تفلته ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وكانَ فِي مَعْزِلٍ يَبُنَيَّ اركَبَ مَعَنَا وَلاَ تَكُن مَعَ الكَافِرِينَ ، قَالَ سآوِيَ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَآءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [2] .

معادلة متوازنة أحكم ناصيتها الخالق عز وجل أن يكون الماء الذي هو أصل الحياة طوفان كاسح وإعصار مدمر لكل أنواع وبؤر الفساد والتلوث التي أتت على الظالمين .. وبعد انتهاء عملية التطهير ﴿ وَقِيلَ يَأَرْضُ ابْلَعِي مَآءَكِ ويسمَآءُ أقلِعِي وَغِيضَ الْمَآءُ وَقُضِيَ الأمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [3]

هنا نصل إلى المرسى ، إلى المرفأ الآمن لنرسم حدا فاصلا واضحا في

---

(١) القمر : ١٢ .
(٢) هـود : ٤٢
(٣) هود : ٤٤

دورة الدائرة لمن لا يلتزمون بمن فيه خلاصهم وسبيل ورفاهية سعادتهم وهو المرسى الذي صناعته ربانية ورصيف مينائه ومرفأه ضوابط إسلامية. فما أجمل سفينة نوح عليه السلام الخشبية التي بينت لربانها أساليب ملاحتها وإشكالات عواصفها ! المتلاحقة وأمواجها المتلاطمة الرسالة المحمدية وهنا يختلط الماضي بالحاضر ليشرق نور جديد لرؤية جديدة ولكن تحت المظلة الإسلامية - الحضارية .

ب- قوم عاد ونقمة البيئة الجوية :

نموذج آخر من نماذج عدم الالتزام بروح الفطرة بنقائها وصفائها .. والهواء برئته التي هي المصدر الوحيد لحياتنا وسبيل تنفسنا سواء كان ذلك إنسان أو نبات أو حيوان ، وكيف تتحول طاقة الرياح الذي يحاول البعض أن يجعلها مصدرا من مصادر الطاقة الطبيعية - إلى وسيلة من وسائل إبادة قوم عاد بعد أن حادوا عن جادة الصواب لنور الفطرة وجحدوا بآيات الله ولكن لا بأس بأن نبين هذه المقدمات : -

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [1] .

فكيف تكون النتائج بعد هذه المقدمات وما يسيطر عليها من جحود .. نهاية مناسبة ، وجزاء من جنس العمل ..

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾[2] .

---

(١) فصلت : ١٥ .

(٢) الحاقة : ٦ وما بعدها .

نعم ريح عقيم ، ما أتت على شيء إلا جعلته كالرميم ، حيث كانت الريح تحمل الإنسان في الهواء ثم يصطدم بالأرض فيلقى حتفه بعد أن فعلت به الريح فعلها وأثرها ، وكان هذا التدهور البيئي بسبب الخلود إلى الأرض بطينتها وثقلها وعدم النظر والتحلق في آفاق ورحابة السماء وعطائها المتمثل في رسالة هود عليه السلام ونرجع إلى آية أخرى لتقرر طبيعة الناموس الكوني ، القانون الآلهي لسعادة البشرية الحائرة الجائرة ، الفائرة الغائرة .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ (١) .

ج) قوم ثمود وانتهاك لحرمة البيئة الحيوانية :

نحن نعلم أن ثمود من العرب العاربة قبل إبراهيم عليه السلام ، وقصتهم تدل على أنهم قد عميت أبصارهم وقلوبهم بما جعل الله عليها من ران وغشاوة لا ترى الحق ولا تستريح إليه ٠٠٠ وكان مطلبهم غريبا أن يخرج لهم صالح عليه السلام ناقة عشراء من صخرة صماء ، وهذا هو شأن الملاحدة في كل زمان ومكان وقدرة الله حققت لصالح عليه السلام ما طلبوه منه وكانت المعجزة الكبرى أن تحركت الصخرة ثم انصدعت عن ناقة عظيمة يتحرك جنينها بين جنبيها ٠٠ ولكن السرد للقصة ليس هو الغرض٠٠٠ ولكن الناقة وقدرة خلقها أصبحت آية من آيات الله ٠٠٠ وكان من المفروض أن تكون طريقا وهو نوع من أنواع الفساد في الأرض ٠٠ للحيوان والبيئة ، وتأتي قدرة الله مرة أخرى لتعديل هذا الشطط وبيان معالم

---

(١) المائدة : ٦٦ .

المسار من جديد .. ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاء اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ، قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ، فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ، فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ (1) .

سبحان الله !! بهذا الجزاء العادل ، والذي أخذهم أخذ عزيز مقتدر... وتتحقق قدرة الله عندما قتلوا الناقة وفصيلها وبكى صالح – عليه السلام – وقال : «تمتعوا في داركم ثلاثة أيام» .

ورغم ذلك وهذا قمة الإعجاز لن يستطيعوا الفكاك وكيف كانت هذه المساحة الزمنية وما تم خلالها من تحول وجوههم من الاصفرار إلى الاحمرار حتى أصبحت في اليوم الثالث مسودة مظلمة كقلوبهم وطبيعة أفعالهم ، وتصور فكرهم فيأتي عقاب السماء وهو عقاب عادل يتناسب مع بشاعة الجرم ليصحح المسار ويشرق النور من جديد .

د) قوم لوط والبيئة الاجتماعية :

نوع آخر وغريب ومثير في مسيرة البشرية ويمثل أقصى درجات التلوث بشذوذه الكريه العفن ، والذي يؤدي إلى قلب موازين المجتمع وقيمها

---

(1) الأعراف : ٧٢ وما بعدها .

وثوابتها وكل معايير ونظم الحيـاة منذ أن خلق الله تعالى آدم عليه السلام خلق له من ضلعه زوجة وهذا نظام ربـاني ثابت ونـاموس كوني منذ بداية الجنس البشري ٠٠ إلا أن قوم لوط عليه السلام بفكرهم المريض وخيالهم الجامح الجانح وسفه عقولهم حاول بث هذا الفيروس الاجتماعي الذي يحطم قواعد هذه البيئة ٠٠٠

–أن يأتوا الذكران من العالمين – وهذا يذكرني ما تم بمؤتمر المرأة والذي يبيح مثل هذا الشذوذ ، ولننظر إلى قول لوط عليه السلام بعد أن وجد تلوث طبيعة تركيبتهم وفيروس جنوحهم :

﴿ هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴾ .

ولكن التلوث قد دخل بسوسه الناخر في تركيبة دمائهم الفاسد ٠٠ وانظر إلى هذا الرد بصلفه ووقاحته))

﴿ إنك تعلم ما نريد ﴾ .

وكانت طبيعة هذا الشطط أن تأتي عليهم الدائرة لتريح البشرية والبيئة من سرطانهم وأدرانهم لطبيعة المجتمع الذي الأصل فيه الطهر والصفاء :

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ (١) .

ويحكى ابن كثير أن جبريل اقتلعهم بكل مساكنهم وحيواناتهم ونباتاتهم وطواها في جوف جناحه ، ثم صعد بها إلى السماء الدنيا حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب والدجاج ثم قلبها فأرسلها إلى الأرض

---

(١) القمر : ٣٧ ، ٣٨ .

منكوسة فجعل عاليها سافلها .

﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ، فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ، مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ (١) .

ولننظر إلى الدراسات المفزعة على الغرب والتي تذهب بأنه لا يوجد إلا أقل القليل ممن يحتفظن من الفتيات بعذريتهن وشرف طهارتهن - غشاء البكارة - والدراسة أيضا التي تتنبأ أن سبب سقوط أمريكا القادم هو شيوع الفاحشة وانتشارها ودخول الشواذ إلى صفوف الجيش وهكذا تكون ظاهرة السقوط قديما كقوم لوط مثلا ، وحديثا يكون أساسه سقوط للقيم والمبادئ ومعايير الحق التي حددت معالمها أحكام السماء ..

هـ) قوم مدين وانتهاك حرمة البيئة الاقتصادية :

تدهور آخر ينشأ عنه الغش والتدليس ، وهذا التلوث والفساد يعمل على زعزعة الاقتصاد والبعد بالمال عن وظيفته الأساسية التي بين ملامحها الله في كتابه الكريم وحرمة البيع والشراء والقسط فيها ، وعدم التطفيف ... ولننظر إلى هذا الفساد وكيف كان عقاب الله لهم .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ، وَيَاقَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ، بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ، قَالُواْ يَاشُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيۤ أَمْوَالِنَا

---

(١) هود : ٨٠ ، ٨٣ .

مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (١) .

وماذا كانت النتيجة بعد العبث بقواعد البيئة الاقتصادية يقول الله تعالى من ضمن ما أصابهم من مهلكات متعددة :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ (٢) .

ولننظر كيف كان المساس دائما بالبيئة الاقتصادية التي حددها الشرع الحنيف يؤثر على تآكل بنيان المجتمع وكيف أيضا أن أول ثورة طبقية عرفها المجتمع كانت في العصر الفرعوني والتي صورها الحكيم المصري ((أيبور)) .

و) فرعون ومحاربته للبيئة السماوية :

حاول فرعون بجبروته أن يعطل أحكام السماء بادعائه لها ، وأن يحارب رسلها ، وهنا نجد أن فرعون يعتبر ظاهرة غير مسبوقة بهذا الشكل المعقد في التاريخ .. لأنه حاول أن يقلب موازين الكون ، وأن يجعل من نفسه إلهـا :

﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىَ ﴾ (٣) .

إدعاء سافر للربوبية وفي موقف آخر أشد انتهاكا لقاموس الكون وفطرته :

﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرِي ﴾ (٤) .

---

(١) هود : ٨٤ ، ٨٧ .
(٢) الأعراف : ٩١ .
(٣) النازعات : ٢٤ .
(٤) القصص : ٣٨ .

ادعاء إفك للألوهية ثم بعد ذلك مراحل العذاب الذي تعرض لها سحرته بعد أن آمنوا بدعوة موسى عليه السلام، وكذلك امرأته ، ومؤمن آل فرعون. وماذا كانت نتيجة هذا التهور البيئي ، هذا ما صوره الله - سبحانه وتعالى - بموقف نابض بالحركة يوقظ الهمم الساقطة والنفوس المنتكسة :

﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ، كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ، فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ، قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ، فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ، وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ، وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ (١)

ولننظر إلى تصوير آخر يدل على الانهيار لهذه المدنية أن ظهرت رائحة الفساد التي تبين بئس نهايتها .

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ، الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ، إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ (٢) .

أين جبروت القوة ؟ أين الفراعنة؟ قانون وروح سارية تأكل كل مظاهر الفساد والضعف أيا كان شكلها ودرجات تلوثها والقوة تتحول إلى ضعف مركب منتكس قوة مزرية مخزية تجد طريقها إلى الاندثار والانهيار لتأخذ مكانها في متاحف التاريخ لتكون عبرة لإعادة البوصلة إلى مسارها الصحيح بهدي من السماء .

---

(١) الشعراء : ٥٧ ، ٦٦ .

(٢) الفجر : ١٠ ، ١٤ .

ز) أبرهة الحبشي والبيئة العسكرية :

القوة العسكرية أو الجهاد يكون لرفع راية الحق ونشر قيم الخير والعدل والعزة ومعايير الجمال بضوابطها الشرعية التي تمكن الأمة من القيام برسالتها في إبراز مفهوم لا إله إلا الله الذي يعتبر بمثابة مانعة الصواعق في هذه القرية الكونية التي تم إفرازها في هذه المرحلة الأخيرة .

ومن ثم فإن الاستعداد والمحافظة على ملامح هذه البيئة مطلب إسلامي، بل هو فريضة إسلامية ، وفي هذا يقول الله تعالى :

﴿ وَأَعِدّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾ [1]

قوة دفع ذاتية ولكن لمحاربة أهل الفساد في الأرض ، ولكن في الوقت ذاته يجب أن نتذكر الوصايا العشر التي أوصى بها أبو بكر الصديق جيش أسامة بن زيد وكيف كانت عبارته عن وثيقة تحفظ فيها كل صنوف الحياة وسبل استقرارها ..

إلا أن أبرهة الحبشي والذي كان ملك اليمن من قبل النجاشي كان قد بنى في صنعاء كنيسة هائلة البناء ، حتى أن الناظر إليها يكاد يسقط غطاء رأسه إذا رفع رأسه لينظر إليها ، وكان يقصد من ذلك أن يصرف حج العرب إليها بدلا من الكعبة ، ولذلك سار إلى مكة في جيش عظيم كثيف عرمرم وصحب معه فيلا عظيما كبير الجثة لم ير مثله ... وعدة أفيال

---

(١) الأنفال : ٦٠

أخرى وغرضهم من هذه القوة العسكرية هدم بيت اللـه العتيـق (الكعبـة) ، وهنا نتذكر مقولة عبد المطلب : « إن للبيت رب يحميه » وهنا تتدخل قدرة السماء بأكبر سلاح جوي عرفته البشرية هم أرادوا ببنـائهم أن يكـون مرتفعـا كما رأينا ولكن قدرة الله كانت أرفع وأعلا - والجزاء قوة أخرى من جنس العمل - سلاح طيران ربـاني ٠٠ طيـور أبـابيل لبعضهـا خراطيم كخراطيم الفيلـة التي أرادوا بهـا هـدم الكعبـة ٠٠ حتى أن أبرهـة الحبشـي تسـاقطت أعضاءه عضوا عضوا ببلاد خثعم ٠٠ حتى أن وزيره أبو يكسوم لم ينج مـن هذا السلاح الطيراني الرباني ، وهذه القوة العسكرية الربانية أشـار اللـه إليهـا في مواقع كثيرة والنصر فيها ليس بالضرورة عدته وعتاده٠

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ، ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

نعم ما أجمل جنود السماء ، وما أشد بأسها وقوتهـا التي ليس لهـا تحد وما أجمل وأبدع نصر يؤيده ويؤازره الله جلت قدرته فإن التخطيط العسكري وتكتيكاته المتنوعة الأطوار والمفاجآت ، وكذلك التقنيات المعقدة مطلـب حـي لنشر قيم الخير والحق ، إلا أن التخطيط والتكتيكات يجب أن تتم تحت مشكاة نور السماء وكنانتهـا الأساسية ٠٠ وهنـا يكـون الجمـع بيـن تخطيـط السـماء وتخطيط الأرض فلا يحدث الانشطار أو الانفصال .

(١) التوبة : ٢٥ ، ٢٦

ح) شرك أهل الكوفة والبيئة النباتية :

بين الله - سبحانه وتعالى الغرض من النشأة على كوكب الأرض :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (١) .

وماذا عساها أن تنبت الأرض غير النبات بأنواعه الجميلة وصنوفه البهيجة ، ورائحة أزهاره الذكية ٠٠ والعمارة كم أوضحنا هي عمارة للأرض بكل مظاهرها ، والنفوس والقلوب بكل عطاءاتها ، ولنذكر هذه القصة التي وردت بسورة الكهف :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً ، كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً ﴾ (٢) .

أليست هذه هي قيمة العمارة في الأرض ؟!

جنات ٠٠ أعناب ٠٠ نخيل ٠٠ أنهار ٠٠ ثمار ٠٠

ولكن كان هناك فيروس سوس ينخر في خبث سرطاني لهذه العمارة٠٠٠ للدينامو الذي يغذي كل أسباب هذه الجنات بل هو أصلها وسبب من أسباب لقائها واستمرارها ٠٠ للقلب ٠٠ فماذا عساها أن تكون العمارة إذا أصيب للدينامو بالعطل ٠٠ ثم بالعطب ٠٠ ولكن لننظر إلى بداية أعراض عطل هذا الدينامو .

﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾ (٣).

---

(١) هود ٦١

(٢) الكهف ٣٢، ٣٣

(٣) الكهف ٣٤

أليس ذلك من أعراض هذا العطل لهذا الدينامو ٠٠ الغرور ٠٠ الكبرياء٠٠ العنصرية ٠٠ وتستمر الطاقة الهدامة هذه لتصل بالدينامو إلى حالة من العطب :

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً ، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً ﴾[١] .

ويأتي مهندس خبير بالأعطال وبيان إصلاحها ، فهذا الرجل المؤمن الذي لا عار عليه إن حرم مباهج هذه الدنيا وزخارفها الفانية ، فهي عجوز شمطاء لا يرجى منها نفع

﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ [٢] .

ولا بأس بأن نبدأ في سرد هذا الواقع الدرامي المتتابع الأحداث ، لعلاج هذا الخلل ويصحح اتجاه المسار الحقيقي لترتبط الأرض بروح ومبادئ السماء :

﴿فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً ، أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً ﴾ [٣] .

وانظروا إلى هذه النهاية ، وكيفية تصوير هذا المشهد الذي يعتريه الفزع والهلع فضلا عن العار والفقر؟﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً ﴾ [٤] .

انهيار ٠٠ دمار ٠٠ انتكاس ٠٠ خراب ٠٠ ظاهرة سقوط للفكر قبل

---

(١) الكهف : ٣٥ ، ٣٦ .
(٢) الكهف : ٣٧ .
(٣) الكهف : ٤٠ ، ٤١ .
(٤) الكهف : ٤٢ .

المارة ‥ تحولت الجنات بجيوشها العديدة إلى عروش ذابلة عفنة فقر وانتكاس في القيم أدى إلى تحويل درامي رهيب للأقنعة الكاذبة ‥‥ وهي بحق أكبر صعلقة لا يدانيها شعراء الصعاليك ‥ لماذا ؟ لأن الأساس منهار ‥ الأساس مقوض ‥ وقس على ذلك قارون ‥ وثعلبة وربما هو الذي يستطيع أن يحصل على هذا التلوث بجدارة ؛ لأن هذا الصعلوك الذي كان يريد أن يعيش في بحبوحة من العيش وسعة من الرزق وعندما أعطاه الله دخل في أكبر مرحلة انتكاس سجلها القرآن، لتكون دليلا لمن تعمي المادة أبصارهم وتضيق صدورهم فلا يجدون في الكون إلا السواد والقتام مع أن كل شيء مبهج وجميل وبشير بشرط تحويل الاستقبال إلى إرسال نور السماء وهديه وهو القرآن الكريم .

نعم ، إن المترفين الموغلين في المادة هم أبصر الناس عن السعادة بل إن المترفين هم أهل الفساد في الأرض هم أهل الفساد من قديم .

﴿ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ، وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [1] .

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ [2] .

وبشيوع الفساد والتلوث تنزلق الحياة الاجتماعية عن مسارها الصحيح وتصبح العزلة التي يرفضها الدين أمرا مباحا ، والبعد عن كل شاغل عن الله تعالى ، كالمال والولد إلى شهود الله والانهماك في طاعته ، فلا يعرف

---

(١) هود ١١٥ . ١١٧
(٢) الإسراء ١٦

وقتا من أوقاته ، ولا حالة من حالاته ، ولا جزءا من أجزائه لغير الله ، وهنا وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : قال رجل : أي الناس أفضل يا رسول الله ؟ قال : ((مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله)) قال : ثم من؟ قال : ((رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه))

وخير ما نختتم به هذا المبحث هذا القانون المحكم ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وِأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [1]

* * * * * * *

(١) التوبة : ٧٠

الازدهار البيئي في قيام منهج الله

إن الازدهار البيئي ، والسلامة والأمن البيئي بجميع أشكاله ومظاهره - ليس وقفا على التلوث الشائع بدرجاته الطبيعية الثلاث (ماء - هواء - غذاء) يكون في الالتزام في قيام منهج السلامة البيئية - الإسلام - على واقع الأرض وهل الإسلام إلا منهاج حياة ، ونظام كون ، ودستور أمة ، يشمل حقوق النفس والبدن والروح والفكر والتخيل والتصور والرؤية وتكوين الإحساس واستدراك المواقف وإدارة الأزمات بشتى صورها على هديه ونوره .

هذه هي طبيعة هذا الدين الخاتم ومذهبيته الربانية المصدر ... الثبات في الأحكام على الأشياء والأوضاع ... والشمول والاحتواء لكل أوضاع الحياة ... والتوازن الذي يجمع بين إيجابيات الحياة ... والإيجابية التي تحركها قوة الدفع الذاتية لهذا الدين نحو نشر قيم الخير والحق والجمال ... والواقعية التي تعالج نظاما قائما ، فجمهورية أفلاطون إن كان ليس لها واقع فواقعية هذا الدين تجد ذاتها من خلال الواقع المعايش الذي نرسم له الطريق وتصحح له المسار ... فضلا عن الخيمة الكبرى وفسطاطها المميز التوحيد... التوحيد .. الذي هو أرقى مظهر للازدهار البيئي ... بل هو أساس مكين ... وحجر زاوية ... ونقطة مركز ... ومحور ثابت لقيام مجتمع السلامة البيئية ..

انظر إلى ما قاله ربعي بن عامر رسول جيش المسلمين إلى رستم قائد الفرس ، وهو يسأله ما الذي جاء بكم ؟ كلمات قلائل تصور هذا الازدهار

البيئي الذي كانت تنعم به هذه البيئة٠٠٠ وطبيعة الحركة الإسلامية التي انبصقت منها ٠٠ قال له :

((الله ابتعثنا ، لنخرج من شاء ، من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده٠٠٠ ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ٠٠ ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام)) .

وبهذا الازدهار البيئي الذي بيع ربعي بن عامر جزء منه وكان يعالج فساد وتلوث مركب في عصره ٠٠٠ نستطيع أن نعيد حركة التاريخ لمعالجة هذا التلوث الذي أفرز أمراض ومسميات غريبة لم نسمع عنها من قبل ٠٠٠ وأن تكون هدية للبشرية المعاصرة التي مزقتها الفلسفات الملحدة ٠٠٠ وفي هذا المنهاج طبيعة السلامة البيئية والازدهار البيئي ٠٠٠ ووداعا للفقر البيئي وبيئته ٠٠٠ أيا كانت درجات الفقر ٠٠٠ هو خلق جديد ٠٠٠ بعث أصيل٠٠٠شروق متجدد توليد دورة ربانية تحرر فيه كل الشعوب من مظاهر التلوث بدرجاته المختلفة وأهمها ربطها برب السماء ٠٠٠ وهذه تكون قيمة الهدية الربانية التي تستطيع أن يقدمه المسلم لكتاب الله المنظور ببشريته٠٠٠ والتي قد تكفل الله بها مسطورة ٠٠٠ وفي ذلك سيمفونية بين الأرض والسماء ٠٠ نعمة عظمى ٠٠٠ منحة كبرى ٠٠٠ الله الذي أحسن خاتمتها.

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾[1].

وقد قال فيه : -

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾[2].

---

(١) المائدة : ٣ .

(٢) الكهف : ٥٤ .

• ليذهب المصطفى ﷺ ليقرر هذه الحقيقة ويبين للأمة عصمتها وسفينة نجاتها يوم أن تفقد دفة قيادتها وبصلة مسارها واتجاهاتها ··· وتختلف الآراء ·· وتتضارب الأهواء ··

((تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا : كتاب الله وسنتي))

ثم يحذر المصطفى ﷺ في المحافظة على جميع مظاهر البيئة بقوله وتحذيره : من أنه سينزل بالأمة من بعده فتن كقطع الليل المظلم : ويبين المخرج منها بقوله ﷺ : ستكون فتن كقطع الليل المظلم : قالوا وما المخرج منها يا رسول الله قال ﷺ : ((كتاب الله وسنتي))

وبذلك نجد أن الازدهار البيئي من المأكل ··· والمشرب ··· والأمن والاطمئنان النفسي في رعاية حقوقه سبحانه وتعالى :

﴿ وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [1] .

انظر إلى هذه المعادلة البسيطة

······ + ······· الاحتراق القلبي ← جوع + خوف (بمرارة الحنظل)

هل تستطيع عزيزي القارئ استنباط طرف المعادلة الأولى الذي أدي عن طريق الاحتراق القلبي إلى مظاهر الجوع والخوف وما يصاحبه من فزع وهلع ···· بشرط الالتزام بالنسب الكيمائية وأوزانها ؟!!!

الله أكبر ···· بهذه الفتوحات الربانية وهديرها الشامل المانح .

---

(١) النحل : ١١٢ .

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [(١)] .

للسياسة وشئونها ··· الاقتصاد ودروبه ··· المعاملات وأحكامها··· السياحة وضوابطها ··· التفكر وحدوده ··· العلم وأدواته··· العسكرية وهدفها ··· الأمن ومقوماته ··· حتى الجمال بمعاييره ··· والمزاح وضوابطه ··· وفي كل هذه المجالات المتعددة بدوائرها المتداخلة والمتصلة إذا تم مراعاة حقوق إليه فيها كانت الخير ··· والعطاء ··· والنماء وخلق مجتمع الطهر والصفاء والنقاء وهجر الرذيلة··· السلامة البيئية بمظلتها الربانية ···

* فإذا أردنا أن نبين بيئة الفقر ، أو فقر البيئة وما يؤدي إليه من التخلف والحرمان ما عساه أن تكون مظاهر هذا التدهور البيئي :

* دوائر ثابتة ، ومفردات بيئية لا تخلو من :

القحط ··· الفقر ··· العقم ··· جفاف الأنهار والبحار ··· اندثار الحدائق على عروشها ··· الذلة والضعف بوصمة عارها ··· فماذا عن الحل لهذه المشاكل البيئية ؟ القرآن هو الحل :

﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ [(٢)] .

نعم ، قوة دافعة أساسها الاتصال بأحكام السماء ··· دفع ذاتي نابع من الاستغفار ··· يؤدي إلى النماء والارتقاء وشلالات ربانية ··· أضف إلى ذلك ··· الهوية – رمز التميز والخصوصية ·· وفوق كل هذه السعادة

---

(١) النحل : ٨٩ .

(٢) هود : ٥٢ .

الحقيقية لإقامة الأحكام الربانية على واقع ملابسات الكرة الأرضية فيكون البر والشفاء والبلسم والهناء ٠٠٠٠

انظر إلى عطاء آخر :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ، يُرسِلِ السَّمَآءَ عَلَيكُم مِّدرَاراً ، وَيُمدِدكُم بِأَموَالٍ وَبَنِينَ وَيَجعَل لَّكُم جَنَّاتٍ وَيَجعَل لَّكُم أَنهَاراً ﴾ [1] ولننظر إلى هذه المعادلة :

أمل وبكاء لاختراق الآفاق والنظر للسماء

استغفار ← ماء سلسبيل + ذهب خالص + ذرية صالحة + جنات معرشات + أرض خضراء + أنهار جاريات

معادلة متوازنة من صنع الخالق عز وجل فلا شتاء نووي ٠٠٠٠ ولا اقتصاد ربوي ٠٠ ولا جنس ثالث مخنث ٠٠ ولا جفاف وطوفان.

* * * * * * * *

(١) نوح : ١٠ ، ١١ .

نماذج ربانية للسلامة البيئية

لا بأس بأن نقوم بسرد يوضح الازدهار البيئي في المسيرة البشرية من خلال المنظومة القرآنية :

١) **يونس عليه السلام** : كان من المسبحين ، وكان تسبيحه ربه في بطن الحوت هو دعامة النجاة وسبيل الخروج من الكرب ، فسجد لله تعالى في بطن الحوت ، قائلا : ((**لا إله إلا أنت سبحانك إني من كنت الظالمين**)) فتعلقت هذه الكلمات بعرش الرحمن تشفع ليونس عليه السلام ، عند الديان فوهبه الحق تعالى : النجاة والحياة (**فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين**) هذا التسبيح كان مظهرا من مظاهر الازدهار البيئي وسبيل نجاة مع أن درجة حرارة بطن الحوت كانت قادرة أن تأتى عليه ولكن مظلة الله ورعايته أنبتت عليه مظلة من شجرة يقطين

٢) **إبراهيم عليه السلام :**

حاول أن يخرج بقومه إلى الازدهار البيئي - كما هي رؤيتنا للبيئة - ولكن للأسف قد عشقوا الظلام وعالمه كالخفافيش في طبيعة تركيبها ٠٠٠ التي لا تنسجم من النور وعطاياه فالنور رغم شلالاته الضوئية يجعلها لا تطيق هديه فتهرب للظلام ولله في خلقه شئون والأكبر من ذلك أنهم يريدون أن يقضوا على بيئته وما تتميز بها من عطايا الطهر والعفاف ٠٠٠ بحرق إبراهيم - عليه السلام ونحن نعلم النار بشررها ولهيبها وخاصة أن هذه النار لم توقد نار قط مثلها .

النتيجة

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ، قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴾ (١) .

وهناك تتحول النار من نقمة إلى نعمة تتحول أساليب الفساد للبيئة إلى مفردات وأدوات صلاح وبرد وسلام حتى النار كل ما فعلته أن أكلت الوثاق الذي قيد به عندما ألقي في النار ، وبذلك نجد أن الصدمة تحولت إلى قوة ، والكيد تحول إلى تمكين والمكر والخبث واللؤم بأدرانها السرطانية الخفية لم يصبهم إلا في مقتل وكانت الدائرة عليهم ٠٠ فكانت كل أسباب قوتهم مسببات لانهيارهم واندثارهم وحصحصة نور الحق من جديد٠

٢)عزير والسلام البيئي :

قصة رجل ببيت المقدس .

أوقف الله له : حركة الزمن ٠٠٠ وطبيعة الأشياء وخواص تركيبها وتحولها ٠٠ الطعام والشراب بأشكاله وأنواعه لم يتحول في هذه المساحة الزمنية التي وصلت إلى قرن من الزمان إلى خاصية الفساد والتلوث ٠٠٠ ولا مبردات ولا أدوات حديثة للحفظ ولا ثلاجات ٠٠٠ وماذا تفعل هذه الأجهزة لقرن من الزمان ربما يتعدى أضعاف عمرها الافتراضي؟ ٠٠

---

(١) الأنبياء : ٦٨ ، ٧٠ .

بل نسمع كل يوم عن المعلبات الفاسدة ٠٠٠ حتى الهندسة الوراثية التي أصبحت موضة العصر ٠٠٠ عاجزة أمام هذه المعجزة ٠٠٠ لأنها لا تستطيع أن تكسر حاجز الزمان والمكان ٠٠حتى عزير كان يعتقد أنه لبث يوما أو بضع يوم ولكن قدرة الله التي تغير طبيعة الأشياء وتوقف الأسباب والمسببات .

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [1] .

بالله عليكم إذا كان الاستنساخ بخيره وشره والهندسة الوراثية بأقصى ما يمكن أن تصل إليه ما عساها أن تعطي أمام هذه الشلالات الربانية ونفحاتها السماوية واستدراكاتها الإيمانية وإن كان البحث والتمحيص والإلهام والاستنتاج والاستخلاص هو طبيعة المسلم في كل مجالات حياته فكرية كانت أو عملية .

* مظهر آخر للسلامة البيئية :

هل أحد يستطيع أن ينكر أن العلم الحديث لا يستطيع أن يمنع جنون البقر ، وما راح من ضحيته من رؤوس ماشية وأرواح بشرية وتلوثات بيئية؟٠٠٠ إلا أن قصة الطيور وسيدنا إبراهيم تبين قدرة الله الخارقة ودورها الواضح المؤدي إلى السلامة البيئية والازدهار البيئي وكيف أن هذه

(١) البقرة : ٢٥٩ .

الطيور تم تقطيعها وفصدها؟ ... أقصى ما يصل إليه التلوث من درجات وخطر... وما وصل إلى ذلك من نتف للريش وتمزيق للأعضاء ... ولكن هذه هي دائما عناية الله تجرى الأسباب وتوقف المسببات والعكس يكون كذلك لأن الله سبحانه وتعالى غني عن وسائل البشر القصيرة الفقيرة.... وكيف تجتمع أجزاء هذه الطيور من على كل الجبال ويتم تحويل الدم إلى الدم ، والريش إلى الريش حتى قام كل طائر على حده وأتينه يمشين سعيا؟ .... هل هذه السلامة البيئية التي يبين ملامحها ويفصل خيوطها الله سبحانه وتعالى .... ماذا يقول الإنسان في أمرها ؟! .... غير أن الرعاية الإلهية ... ومراعاة الأوامر الربانية هي كل أساس تقدمات وازدهارات بيئية .... هل آن الأوان أن ينعكس هذا النور بقافلته المباركة.... وشلالاته الهادرة لترى البشرية حلقة جديدة من السعادة ؟!

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [1] .

****

(١) فصلت : ٥٣ .

الإسلام وعلاجه للتلوث الضوضائي

إذا كان ذلك التلوث الضوضائي أصبح ملمحا من ملامح هذا العصر فالإسلام له باع كبير لمعالجة ذلك الخلل ٠٠ ولِمَ لا ؟ أليس الإسلام منهاج حياة؟ ، ومن ثم يجب أن ينعكس على واقع المجتمع وما يتميز به من صفة التطور والتجدد لاحتواء قضايا العصر بشمولية وعالمية رحبة واسعة .

وقد أصبحت الضوضاء سمة لهذا العصر الذي تمسك زمام ناصيته المدنية الغربية ٠٠٠ كما لو كانت مدنية الضوضاء ٠٠٠ ولم لا ؟ دائما الظلام من الغرب ٠٠٠ حيث الغروب والأفول ٠٠٠ وهذا ليس بغريب عن الغرب أن تكون الضوضاء من ضمن صادراته في مفهومها الشامل الواسع ولكن إن كان الصوت الجميل هو نعمة من نعم الله علينا ، إلا أنه أحيانا تتحول هذه النعمة إلى نقمة إذا زادت عن حدها ٠٠٠ حد الوسطية عنوان وشفرة السلامة البيئية ولا غرابة أن نرى أحد مجددى هذا العصر من ضمن وصاياه : لا ترفع صوتك أكثر مما يحتاج إليه السامع فإنه رعونة وإيذاء .

والواقع أن هذه العبارة انعكاس لتكوين ونسيج هذا الدين ولكن لنبدأ الشوط الأول لهذه القضية :-

** الصوت في كتاب الله المنظور ـ الكون -:

هل الصوت الذي يصل إلى طبلة الأذن غير موجات تأخذ طريقها عبر أثير الهواء؟ وإن كان سبب انبعاثها دائما يكون الاهتزاز ٠٠ ولكن هذا ليس مجال تعريف الاهتزاز ودرجاته المختلفة فضلا عن سعة الاهتزاز والتردد٠٠

إلا أن الذي يعنينا في هذا الموضوع أن الموجة التي تحدثها الحركة الاهتزازية يكون بعضها موجات طولية وأخرى مستعرضة ومن خواصها أنها تنتشر اشعاعاتها في خطوط مستقيمة ، وتنعكس بالتالي على سطوح الأجسام العاكسة لها وهو ما يطلق عليه انعكاس الصوت ..

وإن كان المغناطيس له قوة ومجال ورنين فإن الصوت أيضا له أبعاد سواء كانت تتمثل في الشدة وتأثيرها على الأذن وما يترتب على ذلك ، أضف إلى ذلك نوع الصوت ذاته وهي خاصية تمييز الأصوات وأخيرا الدرجة الصوتية المنبعثة من الجسم بنغماتها الحادة وفي هذه الحالة تكون عالية الدرجة .

** مصادر الضوضاء :

والضوضاء بناء على ما تقدم تكون أصوات غير مرغوب فيها ودرجة قوتها عندما تكون من ٨٠ إلى ٩٠ ديسيبل تعتبر ضوضاء بسيطة وإذا زادت عن هذا الحد أصبحت خطرة بمصادرها سواء كانت هذه المصادر من الطبيعة كالزلزال والرعد والبركان أو من صنع الإنسان كضجيج المصانع وغيرها من وسائل المواصلات ويرى البعض أن كل ذلك عندما يزيد عن الحد المطلوب فإنه يؤثر على الخلايا العصبية ، وكل ذلك ينتج عنه ضغط نفسي يأتي على الصحة العامة للإنسان

* الصوت في كتاب الله الخالد المسطور ـ القرآن :-

عندما نستعرض الصوت في كتاب الله المسطور - القرآن - نجد أنه عبارة عن حقائق علمية تعدت النظريات والفروض ، بل إن ما يصدر عن

هذا القرآن يعتبر « إعجازا صوتيا » في القرآن الكريم ، وهذه الحقائق كما سنرى إنها تنسجم وتتناغم مع انفصام نكد ٠٠٠

ولكن لا بأس من هذا المدخل ، والذي ركز عليه القرآن

﴿ يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً . نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ (١) .

ولكن يكفينا الترتيل ، وعلمه الواسع الذي أضفت عليه لغتنا الساحرة الجميلة قواعد ومحاور يجب أن تتبع وتراعي ، فالجوف له حروف يخرج منها ، على عكس الحلق الذي له حروف لا تقوم بها الشفتان والخيشوم واللسان ٠٠٠ هذا الصوت وآدابه وخصائصه وطريقة نطقه كما لو كان معادلة كيمائية له نسب وقواعد يجب أن تراعي ٠٠٠٠

إن الكفار كان الجزاء المناسب لهم سحب نغمة الاستقبال واستساغتها للعمل بها :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ، خَتَمَ اللَّهُ عَلَىَ قُلُوبِهمْ وَعَلَىَ سَمْعِهِمْ وَعَلَىَ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ﴾ (٢) .

وقول آخر يوضح طبيعة هذه النغمة ، والمعنى الخفي لها ، والأذن إحدى مفرداته .

﴿ وَقَالُوا لَو كُنَّا نَسمَعُ أَو نَعقِلُ مَا كُنَّا فِيَ أَصحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٣) .

سماع الحق ٠٠٠٠ تدبره ٠٠٠ ثمرة انعكاسه ٠٠٠ لإزالة هذا الغشاء

(١) المزمل : ١ ، ٤ .

(٢) البقرة . ٦ ، ٧

(٣) الملك : ١٠ .

الذي سيظل وصمة عار لهم حتى لو ظهر مائة « بيتهوفن آخر » ٠٠٠ وهذا يعتبر أشد درجات الضوضاء تلوثا .

** تحول هذه النعمة إلى نقمة : رأينا كيف تحولت الرياح والأمطار وهي نعم خالصة إلى نقم شاخصة؟ ٠٠٠ وذلك في حالة تحول البشرية عن المسار الموجه إلى المسار المستقيم والخط القويم ٠٠٠ ورأينا خاصية هذه البيئة - الاستماع .

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [1] .

وللنظر إلى هذه النعمة وكيف كانت هي التي قضت على قوم شعيب (أهل مدين جيران لثمود بين الحجاز والشام) .

وهنا يرسل الله عليهم موجات فوق صوتية تكسر حاجز الصوت ليتحول إلى تلوث ضوضائي مميت .

﴿ قَالُوا يَشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ، قَالَ يَقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ، وَيَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ، وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [2] .

---

(١) الحج : ٧٣ .

(٢) هود : ٩١-٩٤ .

ومن هنا :

نجد أن الإسلام تنبه إلى هذا الفيروس المدمر منذ ١٤٠٠ عام قبل اختراع مكبرات الصوت ، والميكنة وما ينتج عنه من تلوث ضوضائي يؤثر على الخلايا العصبية والحالة النفسية ، وهذا يتضح في وصايا لقمان الحكيم إلى ابنه ، وكيف يركز على هذا الجانب تركيزا واضحا ، ثم ينفر من طبيعة هذا التلوث لدرجة تشبيهه بصوت حيوان هو في المرتبة الحيوانية أقلها .

﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (١) .

أليست هذه الآية الكريمة أجدر أن تكون سلوك حياة يومي متبع يدل على طبيعة هذا الدين من التوازن والاعتدال بوسطيته وروحانيته ، بل إن هناك من الأمثال والحكم ما يؤكد طبيعة ذلك

الماء على لينه يفلق الحجر على قسوته

ومثل آخر يقاربه ((داخل الإعصار الذي يمزق السماء هناك مجال للهدوء المركزي)) .

وهذا هو ما يدعو إليه الإسلام ، بل هو أمر إلهي واجب التنفيذ :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾ (٢).

وكما نعلم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وبذلك نجد أن

---

(١) لقمان : ١٩ .

(٢) الحجرات : ٢ ، ٣ .

غض الأصوات درجة من درجات التقوى ، ومدح صريح لخفض الأصوات.... وكيف أن الآية استخدمت أسلوب النهي الصريح لرفع الصوت ...

ويمتد هذا البلسم ليشمل العبادة :

﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾ (١) .

﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (٢) .

ولذلك لا غرابة بعد هذا العطاء الرباني أن نجد الرسول ﷺ في حديثه عن البراء بن عازب يقول :-

((زينوا القرآن بأصواتكم)) (٣) .

ولاشك أن هذه المبادئ جعلت للصوت الحسن مكانه طيبة وهذا ما قاله الرسول ﷺ لأبي موسى الأشعري : بأنه قد أوتي مزمارا من مزامير آل داود .... بل إن الرسول فضل بلال الحبشي للقيام بالآذان بسبب حسن صوته حتى قدماء المصريين كان لهم آلهة للصوت وهي الآلهة ((سجرت)) مما يفهم منه دور الهدوء وأثره في المدنيات القديمة البائدة .

---

(١) الإسراء : ١١٠ .

(٢) الأعراف : ٢٠٥ .

(٣) أخرجه النسائي في سننه .

رؤية إعلامية للقضية البيئية

بداية رسم القرآن أيضا معالم الإعلام الإسلامي الصالح المستمد من دستوره الصالح الجامع في الدعوة والبيان والبلاغ والإرشاد ، بل إن الإسلام هو دعوة إلى الإعلام ذاته.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ، وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ (١) .

فهذا هو مبدأ الإسلام الكلمة الطيبة ··· وهي كالشجرة الطيبة ··· خضرة وارفة الظلال ··· ولذلك يجب أن يكون هناك برنامج ثابت في إذاعة القرآن الكريم عن ((الإسلام والبيئة)) باعتبارها إحدى قضايا العصر الملحة ··· ومقرر ثابت على كل سنوات الدراسة تراعي فيه الفروق الفكرية والسنية لسنوات الدراسة فضلا عن تخصص مكان ثابت بصحف الدولة عن الإسلام والبيئة ويعرض في هذا الباب ما يستجد من قضايا بيئية ورؤية الإسلام فيها وأن تكون المحصلة النهائية للرؤية الإعلامية إن كان العالم أصبحت تسيطر عليه فكرة (العالمية) أو (القرية الكونية) ، فهل للقرية الكونية من مصدر يضمن لها حمايتها ويحافظ على مستقبلها ؟ وإذا كان هناك مصدر حماية لهذه القرية في الوقت الذي كثرت فيه الزلازل والبراكين والرعد والصواعق ·· فهل فكر الجميع في وجود مانعة صواعق

---

(١) إبراهيم : ٢٤ ، ٢٦ .

تكفينا شر هذا البلاء القادم أم أن مانعة الصواعق أصبحت حكرا على مقر الحكومات العالمية والمصالح الدوليـــة ••• مانعة الصواعق التي نقصدها يا إخواني هي الرجوع إلى كتاب الله وهديه كما رأينـا مـن المبـاحث السـابقة وهنـا يـأتي الـدور الخطـير للإعـلام ، وأخـيراً يجـب ألا ننسـى الوقـت الــذى سيصبح فيـه الحجـر والشـجر يبـث برنامجـه الإعلامـى ويقـول : ((يـا مسـلم ورائى يهودى تعالى فاقتله)) وهذا غاية البيئة الإعلامية .

*****

الخاتمة

بعد هذا العرض أستطيع – بفضل الله وتوفيقه وضع خاتمة لهذا البحث الذي يمس أكبر قضية في المجتمع المعاصر وهي :-

السلامة البيئية

في

إسلام البشرية

فهو سفينة نوح المرتقبة للنجاة من طوفان التلوث القادم فإلى مفهوم جديد ورؤية جديدة لإنقاذ المجتمع العالمي من هذا الوباء ، ولكن هذه المرة تحت مظلة وخيمة الإسلام الكبرى وهي بطبيعتها دورة جديدة من دورات الحياة كدورة الشمس والقمر والليل والنهار بعد الإفلاس الذي أصاب الغرب وأصاب حيواناته بالجنون وتفاحه بالسرطان وفتياته بالبغاء .

وأخيرا ، فإن البيئة الحضارية هي البيئة الإسلامية ، وكل جزئية من مفردات تكوينها هي مفردات حضارية ؛ لأن الفرد المسلم هو الفرد الحضاري والمجتمع المسلم هو المجتمع الحضاري والأسرة المسلمة هي الأسرة الحضارية ، لأن كل مفردات الحياة من إنسان وحيوان ونبات وجماد هو في حالة تسبيح -وحضور – مع خالق السماوات والأرض وإذا انقطعت العلاقة الحضارية المتمثلة في أ حكام السماء على مسرح الأرض عبر

مساحة الزمن لا شك أن الجميع يبدأ ينتظر ظاهرة السقوط المركب مهما بلغت من أسباب المدنية والتقدم والرفاهية ، إلا أنها ستظل أسيرة الوحل والطين وهذا هو محصلة رصيدها ولننظر إلى مقولة مؤمن آل فرعون ﴿يَاقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾ [(١)] .

ثم يبدأ في عملية سرد درامي لظاهرة السقوط المتتابعة للأقوام البائدة بعد أن أسرت نفسها في المجال الأرضي وضيقه وقطعت علاقتها بحضور السماء ورحابتها.

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ، مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ، وَيَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ، يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [(٢)] .

وبذلك نجد أن البيئة الحضارية في إسلام البشرية وما زال الأمل قائماً والنور قادماً إن شاء الله ويظهور هذا النور الرباني على الجسد الكونى يكون غاية السلامة البيئية فى أقصى عالميتها لكل صور الحياة ومناهج الفكر، وهذا الأمل البيئى ليس ضرباً من الخيال أو بعداً أو بعيداً – إلى حد ما–عن أرض الواقع، ولكنه حقيقة كونية تنبأت بها سنتنا النبوية ((**إن الله زوى لى الأرض فرأيت**

(١) غافر : ٢٩ .

(٢) غافر ٣٠ ، ٣٣ .

مشارقها ومغاربها وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها » [١] . ولكن أليس الصبح بقريب ؟ ! .

الحضاري

يوسف نوفل

صلاة فجر يوم الثلاثاء
٤ محرم ١٤٢٠ هـ الموافق ٢٠ / ٤ / ١٩٩٩م

---

(١) رواه أحمد بن حنبل ، ومسلم ، وأبو داود

الله ربي لا أريد سواه

اللــه ربــي لا أريــــد ســــواه هل فـي الوجـود حقيقـة إلا هـو

الشمس والبدر من أنوار حكمته والبر والبحر فيض من عطايـاه

الطـير سـبحه والوحــش مجـده والمـوج كبره والحــوت ناجـاه

والنمل تحت الصخور الصم قدسه والنحل يهتف حمدا فـي خلايـاه

والناس يعصونه جهرا فيسترهم والعبد ينسى وربي لـيس ينسـاه

نعم ، ما أجمل هذا الكون المؤمن المسبح الساجد المعترف بالألوهيـة! ، سيمفونية رائعة توافق ممتـع. انسـجام متلاحـم بين كـل مفـردات الحيـاة بين الكون المنظور – الكون – والكتاب المسطور – القرآن – وصدق الله العظيم.

﴿ إنا عرضنا الأمانة على السـماوات والأرض والجبـال فـأبين أن يحملنهـا وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ .

الفهرس

المصادر والمراجع والدوريات

أولا:- المصادر :

- القرآن الكريم .
- الصحيحين (البخاري ومسلم) .
- السنن .

ثانيا :- المراجع :

- الكتاب المقدس
- الفوائد ، ابن القيم الجوزيه ، دار الريان للتراث ١٩٨٧م
- زاد المعاد ، ابن القيم الجوزيه ، مكتبة القدس ، بدرن
- فلسفة الحضارة عند مالك بن بن ، سليمان الخطيب ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ١٩٩٣ .
- المسار ، محمد أحمد الراشد ، دار النشر ، ١٩٩٤
- فخ العولمة، هانس - بيتر مارتين، هارالد شومان، الكويت ١٩٧٨
- الحضارة الإسلامية ، توفيق يوسف الراعي ، دار الوفاء ، ١٩٨٨
- أثر العرب في الحضارة الأوربية ، عباس محمود العقاد ، نهضة مصر ١٩٩٥

–الإسلام في قلب العصر ، زينب رضوان ، القاهرة ، ١٩٨٨

–مستقبل الحضارة ، يوسف كمال ، دار الوفاء ، ١٩٧٨

–الجهاد هو السبيل ، مصطفى مشهور ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، ١٩٨٦

–الإيمان والحياة ، يوسف القرضاوي ، مكتبة وهبة ، ١٩٧٥

–الحضارة ، حسين مؤنس ، الكويت ، ١٩٩٨

–موسوعة تاريخ مصر ، يوسف يونس نوفل، دار الصحابة ، ١٩٩٨

–الثقة بالتراث والمستقبل ، أسعد على ، دمشق ١٩٧٩ م

–عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات ـ زكريا محمد القزويني – القاهرة .

–العلوم الكونية في التراث الإسلامي،أحمد فؤاد باشا،القاهرة١٤١١هـ

–العملة المصرية وطرائفها، يوسف يونس نوفل،دار الإيمان،١٩٩٩

–البيئة ومشكلاتها . رشيد الحمد ، الكويت ، ١٩٧٩

–لعنة التلوث ، سعد شعبان ، القاهرة ١٩٩٧

–النظام البيئي ، عدلي كامل فرج . القاهرة ، ١٩٧٩

–التلوث مشكلة العصر ، أحمد مدحت إسلام ، الكويت ، ١٩٩٠

–عندما تطلع النجوم ، بيكر ، نيويورك ١٩٦٣

-الميكروبات والحياة ، عبد المحسن صالح ، القاهرة ١٩٦٢

-قصة الذرة ، إسماعيل بسيوني هزاع ، القاهرة ١٩٦٠

-ثروتنا المائية ، أنور عبد العليم ، القاهرة ، ١٩٦٢

-ثروتنا المعدنية ، محمد فهيم ، ١٩٦٢ ، هـ

-المسلمون والبديل الحضارة ، حيدر عبد الكريم الغدير ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٩٨٨ .

ثالثا: الدوريات :-

-مجلة الأزهر المصرية ، من هم السفهاء ، السيد عبد المقصود عسكر ، ١٠٣٩ - ١٤١٥ هـ

-عالمية الإسلام وعالمية الحرب ضده ، السيد عبد المقصود عسكر ، ١٧٠٨ ، ١٤١٩ هـ

-مجلة العربي الكويتية ، العولمة ، ومحاولة دمج العالم ، عبد الخالق عبد الله ، ربيع الأول ١٩١٨ هـ

-مجلة منار الإسلام الإماراتية ، نظرية الإباحة في القرآن الكريم ، مصطفى رجب ، شعبان ١٤١٩ هـ

-مجلة القافلة السعودية ، الأمية والحضارة والتنمية ، بهاء الدين الزهيري ، رجب ١٤١١ هـ

-مجلة الوعي الإسلامي الكويتية ، العولمة الثقافية وأثرها على

التنشئة الاجتماعية ، مصطفى كسبة ، شوال ١٤١٩ هـ

-مجلة المسلم المعاصر اللبنانية ، قضية العلم والمعرفة عند المسلمين، كارم السيد غنيم العدد ٣٩ ، ١٤٠٤ هـ

-جريدة آفاق عربية ، سلسلة المسلمون وحرب التاريخ ، يوسف نوفل ١٩٩٨

-جريدة الشعب ، المسلمون وحرب التاريخ ، يوسف نوفل ، ١٩٩٧

-جريدة التكافل ، المسلمون والبعث القادم ، يوسف نوفل ١٩٩٦

-جريدة الأخبار ، إسرائيل الطلقة الأولى في حروب المياه ، محمد سيد أحمد ١٩٩٨ .

****

